رونيه أولوج

مريدة نايت عتيق

أغاني تاساوت

قصائد من الشعر الشفوي الأمازيغي

تقديم وترجمة

عبد الكريم جويطي

مريريدة نايت عتيق

أغاني تاساوت

قصائد من الشعر الشفوي الأمازيغي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ
INSTITUT ROYAL DE LA CULTURE AMAZIGHE

مريريدة نايت عتيق

أغاني تاساوت
قصائد من الشعر الشفوي الأمازيغي

رونيه أولوج

تقديم وترجمة عبد الكريم جويطي

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
مركـز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والانتاج السمعي البصري
سلسلة ترجمة رقم : 37

العنوان	:	أغاني تاساوت - مريريدة نايت عتيق
المؤلف	:	رونيه أولوج
المتابعة	:	أحمد المنادي
تقديم وترجمة	:	عبد الكريم جويطي
الناشر	:	المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
الإخراج التقني والتصميم	:	قيدي نادية - وحدة النشر
المتابعة التقنية	:	مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل
الإيداع القانوني	:	2018MO1576
ردمك	:	978-9920-35-448-6
المطبعة	:	دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط
حقوق الطبع	:	محفوظة للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

وادينا صغير والعالم كبير

أنجزت أعمال أدبية وفنية عظيمة في هذا العالم كثمرة لقاء رتبته الأقدار بين شخصين يتفاهمان ويتكاملان، ويساعد أحدهما الآخر على أن يخرج أفضل ما بداخله. وهكذا فنحن ندين بدهشتنا وغبطتنا أمام أغاني تاساوت، لتلك الصدفة الرحيمة التي جعلت في سنة 1932 معلما فرنسيا شابا يلتقي في ماخور بمدشر أزيلال بامرأة استثنائية تلقب بمريريدة. امرأة تحمل في قلبها واديها بقممه وسيوله وأشجاره وماعزه ودوره وعاداته وأفراحه وأتراحه، وتحمل في لسانها أفضل ما تمكنت العبقرية الأمازيغية من إجتراحه في التعبير عن قساوة وجمال حياة تولد وتنقضي وسط قوى هائلة، مرئية وغير مرئية. افتتن الشاب الفرنسي، الذي كانت له آنذاك ميولات ومحاولات أدبية، بالشاعرة. فمنذ سنوات قليلة عين معلما بمدينة دمنات، وكان في أوقات فراغه يغامر بالصعود لوادي تاساوت هناك حيث خطت الطبيعة أبهى صورها في الجلال والبهاء والغموض وحيث عمد الإنسان، وبدأب ملحمي، ومنذ ليل الأزمنة إلى بناء تفاصيل حياة قنوعة ومكتفية بذاتها تقدس الطبيعة وترضى بما تجود به عليه. حياة بسيطة جدا تكرر نفسها وتعض بالنواجذ على ما هو جوهري فقط وتتبدى في يومياتها مثل شغب طفولي تحت أقدام قمم تعانق الغيم وسيول تجرف صخورا هائلة وأشجارا معمرة منحت ظلها بكرم لأجيال متعاقبة. افتتن **رونيه أولوج** بالوادي وبذل جهدا كبيرا في إتقان الأمازيغية ليتواصل بشكل أفضل مع ساكنيه، لكنه لم يجد السبيل إلى أرواحهم إلا حين التقى وبعيدا عن الوادي بصوته الأكثر عمقا وأصالة وشساعة. وهكذا، شهد ماخور مبتذل بمتعه العابرة ولحمه الرخيص وفظاظة ما يجري فيه لقاء أدبيا كبيرا ومثيرا. كأن العابر والمتعجل في الماخور أبى إلا أن ينتقم ويمنحنا شيئا لا يطاله الزمن أبدا. شهد الماخور تحول شعر شفوي عظيم وهائم على وجهه ومهدد بالضياع إلى قصائد مكتوبة ومترجمة بعد ذلك للفرنسية. والجمل المكتوبة، كما قال نرفال هي " شهود أبدية " : ألا تلد المزابل أجمل الزهور وأنضرها ؟ ! .

لم يتحرر **رونيه أولوج** ورغم حبه الكبير للأمازيغيين وأوديتهم ونمط عيشهم وثقافتهم وشعائرهم ورغم افتتانه بمريريدة وشعرها من مسبقات الثقافة الأوربية (الغربية عموما) حول الشرق ونزوعها الاستعلائي وتمركزها حول الذات، وهكذا يمكن أن ندرج لقاءه بمريريدة ضمن تلك الصورة النمطية للقاء الثقافة الغربية العالمة، والمرهفة، والمعقدة بثقافة بسيطة، خشنة، فطرية، وغريبة. وأن هذه الثقافة مهددة حتما بالاندثار لولا المسعى الرحيم والعطوف لليد الغربية التي أخذت على عاتقها صيانتها ونشرها. ويمكن أن نحصي أوصاف أولوج لشعر مريريدة والواردة في مقدمته للتأكد من هذا، من قبيل : " فن خشن،.. بسيط.. بربري .. متوحش .." وأن مريريدة ومهما شمخت فهي ليست سوى ، سافو أمازيغية أو أماريليس، أي ظل ونسخة لأصل أقوى وأعظم. لم يكتشف **أولوج** مريريدة فحسب بل اكتشف واديها قبل ذلك، فهذا الوادي وقبل سنة 1927- 1928 ـ كما كتب ـ حين توغل فيه لم يكن معروفا لدى الأوربيين ولم يكن له أي احتكاك بالعالم. لذا حافظ على نفسه كمتحف للعادات والبنيات الاجتماعية العتيقة. هل هذا ادعاء فج ؟ لاشك أننا ندين **لأولوج** بمعرفة شعر مريريدة، غير أن شعرها نفسه يدحض ادعاءاته حول العزلة والانغلاق التام لوادي تاساوت. فقصائد كثيرة تتحدث عن حركة تجارية تعبر الوادي لتربط دمنات بواحات دادس، وهناك ذكر للبغالين الأقوياء الذين كانوا يتكفلون بنقل البضائع التجارية. والناس لا يتبادلون البضائع فقط بل يتبادلون معها الأفكار والقيم والتمثلات ، حيثما هناك تجارة هناك تلاقح حضاري. ثم إن الوادي يوجد في مجال نفوذ مراكش الإداري والتجاري وهناك إشارة لصلة أهله بتلك العاصمة النافذة. وفي نصوص كثيرة هناك ذكر للعطارين، أي التجار المتنقلين ببضائعهم بين القرى، وذكر للفقهاء (الطلبة) وخصوصا فقهاء سوس الذين يشتهرون لدى العامة بأعمالهم السحرية. هؤلاء الفقهاء كانوا يؤمّون صلاة الناس ويعلمون الصبيان في الكتاب ويوثقون صلة الناس المنعزلين بتعاليم الإسلام. ثم إن وادي تاساوت كان في مجال نفوذ الزاوية الناصرية التي كان لها أتباع كثر وشيوخ بالوادي يقومون بزيارة سنوية لضريح مؤسس الزاوية بتمـگروت. وهناك الحضور البين للسلطة من خلال المقدم والقائد والظهير (المرسوم الملكي) ومن خلال تعسفها وممارساتها

القهرية. والناس فيما بينهم في الوادي كانوا يلتقون في الأسواق ويطاردون الكلأ لقطعانهم حتى أماكن بعيدة. إن قمم الجبال الشاهقة والوديان السحيقة والتضاريس الوعرة والمسالك المحفوفة بالمخاطر وكذا التقلبات المناخية الحادة لم تكن تفرض على ساكنة وادي تاساوت عزلة تامة ومطبقة بل كانت لهم صلات أكيدة بما يحيط بهم، ولعل شعر مريريدة نفسه المحمل بالصور الراقية والحكايات والأمثال والإشارات التاريخية والنزوع الديني الغامر يؤكد هذه الصلات، بما هو تعبير فسيح عن الوجود الأمازيغي في كل تجلياته. وتجب الإشارة في هذا الصدد إلى أن ليون الإفريقي (أبو الحسن الوزان) وقرونا قبل أولوج قد عبر وادي تاساوت ووصفه وتبنى مارمول كربخال نفس الوصف، ومر من الوادي عدة رحالة ...

حين كان **رونيه أولوج** يدون قصائد مريريدة كان يلاحظ بأنها لا تكرر القصيدة الواحدة دون أن تغير فيها، فكل إنشاد جديد للقصيدة هو حالة فريدة لا تتكرر. لذا تتصرف فيها بحسب مقتضيات أحوالها وحسب مزاجها. ولعمري، فتلك من أهم خصائص الشعر الشفوي. إنه شعر مفتوح ومرتجل يغتني بالأماكن التي يعبرها وبالذاكرة التي تختزنه وبالفم الذي ينشده، إنه كالغيم لا ينتسب لأحد ويقبل الإضافات والتحويرات، وكل يهبه من تجربته وواقعه. ينتمي الشعر الشفوي لجماعة لغوية متجانسة، وهو في الغالب الأعم، بلا مؤلف، وفي حالات قليلة وإزاء نصوص مرجعية تتواطأ جماعات مختلفة داخل نفس المحيط اللغوي على نسبه لمؤلفين عديدين. فكل من أضاف بيتا أو بيتين للقصيدة يصير له الحق في تبنيها. يرتجل الشعر الشفوي عادة في الحفلات (زواج، ختان، عقيقة ..) والمواسم الدينية والفلاحية وفي ليالي الترويح عن النفس وحتى في الأحداث المحزنة. وهناك قصائد وأناشيد بعينها تنشد وتغنى بلا تغيير يذكر في بعض المناسبات، لأنها مرتبطة بشعائر وطقوس تتكرر كما هي منذ قرون، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل مثل "نشيد تاغونجا" الذي ينشد في فترات الجفاف للاستسقاء. ومثلما تحتاج القبيلة للمحاربين لتحافظ على كيانها وحقوقها في الماء والمراعي فهي أيضا تحتاج لناظم (شاعر) يكون صوتها في المحافل، يشيد بها ويعدد مفاخرها، ويسعفها بتعبيراته حين يلمّ طارئ ما بها، وتحتاج لفهمه وتحليله وتخليده أو لتلبية ـ

ببساطة ـ تلك الحاجة الإنسانية العريقة في تحويل ما يقع إلى تعبير يتداوله الناس ويرون فيه أنفسهم. وبقدر مـا كانت القبائل تتنـافس وتتصارع فيما بينهـا. كـان النظـامون (الشعراء) يتنافسون أيضا فيما بينهم لإثبات من هو الأفضل، وتنظم لذلك حلقات للمبارزة الشعرية يكون فيها لكل شاعر أنصار يهللون ويصفقون كلما أجاد شاعرهم. وهناك حكام شبه محايدين لتحديد من أجاد وتفوق. يتوزع الشعراء داخل القبائل إلى صنفين : مقيمون وجوالون. فبعض الشعراء، الذين يحسون بأن موهبتهم أكبر من أن تسعها قبيلة واحدة، يتنقلون بين القبائل ويقتنصون المناسبات ويحصلون على العطايا من الجميع. ويكون حدث مرورهم بالقبيلة على قدر أهميتهم وشهرتهم. لقد لعب الشعراء الجوّالون دورا هاما في جعل الشعر الشفوي خبزا يقتسمه الجميع وشكلوا حيثما حلوا نموذجا للاقتداء ولعبوا دورا في تشكيل ذاكرة شعرية جماعية كما كانوا يقربون بين اللهجات. ولعل إنشاد مريريدة لقصائد للشاعر الجوال علي إيباقلوين وتبنيها لها لخير دليل على ذلك ...

في لقائهما الأول أخذ **رونيه أولوج** جسد مريريدة وأخذت هي روحه. ومثلما تمكنت شهرزاد في لياليها البيضاء من ترويض شهريار بالحكايات التي يلد بعضها بعضا، وجعله هو الجبار الدموي يقع فريسة لسحر كلمات تغويه وتقوده ليضع نفسه فوق عاطفة الانتقام المقيتة التي كانت تزين له القتل. فإن مريريدة، وبسرعة، قد حولت لقاء للمتعة الرخيصة والعابرة، إلى لحظة أدبية راقية ودائمة، وحولت عتمة الماخور وفاقته وعريه وبرودته إلى نور وغنى لا ينضبان. أنشدت مريريدة لـ**رونيه أولوج** وبألم هادئ وحنين لا تخطئه الأذن بعض قصائدها وزلزلت كيانه. فها هو الوادي (وادي تاساوت) المهيب والغامض يتكلم، ها هو الجمال الذي كان يحار في وصفه يستعير من اللغة قوائم ويقف أمامه. وها هي تلك العزلات الباردة والمستعلية تفتح قلبها وتحدثه عن كل شيء تقريبا. التقى أولوج لأول مرة بمريريدة وهو معلم، جاء لتعضيد عمل آلة المستعمر الفتاكة (لا يذكر في مقدمته لأغاني تاساوت وهو يستحضر أصدقاءه سوى جنود بمختلف رتبهم).

إلتقاها خفيفا مرحا لا يثقله إحساس بالذنب تجاه هؤلاء البسطاء الذين قتلوا وروعوا ودمرت حياتهم وبنياتهم الاجتماعية والاقتصادية وقذفوا

في لجج حداثة عنيفة ومتكبرة لا ترضى إلا بأن تسحلهم على الأرض وهم يقتفون خطواتها الجبارة. التقاها وهو لا يعي حجم الفظاعات التي ارتكبت في حق أهلها ووايديها والمهانة التي تعرضوا لها. وما تواجدها نفسه في ماخور بأزيلال إلا صورة ناطقة على هذا الإذلال. وتمكنت بقوة شعرها، تلك القوة المستخرجة من ثقافتها والمشابهة لقوة الجوع، على حد تعبير أرتو، بأن تجعل منه مريدا ومتعلما في حضرتها بل جعلت منه مجرد ناسخ لأناشيدها. وانتقل، تبعا لهذا، من حقل الذكورة بما تستتبعه من تحكم وسيطرة وفعل إلى حقل الأنوثة القائم على الخضوع والتبعية والسلبية. تعمل الأنظمة المستبدة، على ما نبهنا، ميشيل فوكو على تنذير الذوات المتكلمة، وفرض قيود على الخطاب فحيازته تعني حيازة سلطة قد تكون مضادة ومقوضة، لذا فكلما كان المتكلمون قلة ومتحكّما فيهم وفي سياقات تكلمهم كلما حافظت السلطة على تسلطها. لذا حين تتسلل امرأة إلى القول وتتقن أسراره وتمنحه من رقتها وهشاشتها وتبعث فيه المنسي والمهمل والمكبوت، وتنتصر فيه للمهمش والدوني فإنها تفتن وتبلبل. وهكذا كان الشرف الوحيد والأبقى الذي كان يمنح مريريدة اعتداد إلهة إغريقية حين تنتصب لإنشاد أشعارها في بؤس وسط العنف المادي والرمزي والإهانة هو شرف الكلمة. لقد جسدت كما حدث مرارا في كليشيهات المرحلة الكولونيالية صورة " البدائي " البسيط الممتلك لحكمة فطرية صقلتها وراكمتها السنون إزاء الأوروبي المنتمي لحضارة متفوقة لكنها مادية وبدون روح.

كم من مرة رأى **أولوج** وسمع لمريريدة طيلة السنوات التي عرفها فيها ؟ وما هي شكل العلاقة التي جمعتهما ؟ وكيف تأتى له هو الذي أفرط في الكتابة عن " أبناء الظل " وحاول في محكياته الكثيرة جدا بأن يحيط بكل تفاصيل حياتهم، بأن يقل حد التكتم في الحديث عن علاقته بمريريدة. فذكر ما هو أساسي فقط ؟ لقد انطوت علاقتهما على جرح (أو جراح ما) أو على الأقل على ألغاز، ومثلما هيأها القدر بكرم أنهاها أيضا بعدم اكتراث. في سنة 1942 سيصاب **أولوج** بآفة العمى وبعيد الحرب العالمية الثانية 1945 سيعود للبحث عنها ولم يجد شيئا، لقد تبخرت مثلما تبخر بصره. وهكذا فرقص الفراشات حول نور باهر لا يمكن أن يمر بدون أداء ثمن فادح. حاول

أولوج وفي الحدود التي يسمح له بها العمى بأن يجدها لكن أبحاثه كانت بلا فائدة، فالكبار لا ينتهون دوما مثلما ينتهي باقي الناس. وكان هذا الاختفاء التراجيدي ملح حكاية انتصر فيها الشعر على الدوافع الأولية للقاء. كانت مريريدة في أزيلال مجتثة وغريبة، وكان شعرها لا يعني شيئا للعشاق السيئين ـ كما وصفتهم ـ والذين يرتوون كالبغال ويروحون لحال سبيلهم حتى شهوة قادمة. ولاشك أنها رأت بدهشة وامتنان تعلق هذا الغريب الآخر بشعرها و بذاتها كناظمة، غير أن منطق القدر (أو السحر كما كانت ترى) الذي رماها بعيدا عن واديها القادر على فهم شعرها وتذوقه لأنه في النهاية صنيعة أهله ومناظره وتضاريسه. هذا المنطق الذي جعل منها " امرأة لكل الرجال " حيث الشقاء اليومي الكبير لتقديم الجسد مقابل اللقمة، دفعها لأن ترحل بعيدا تاركة أسئلة كثيرة ومعلقة وراءها. لقد فعلت ما فعله حمو ما ـ إيسمن ـ إيك، في إحدى قصائدها الرائعة، وضع براد الشاي في قب جلبابه ومرر ساروت الدار تحت الباب وهجر الدار الملعونة بدون أن يلتفت للوراء. وفعلت ما يفعله الشعراء دائما حين لا يسعهم المكان وحين يختنقون وسط أناس بعينهم. ألم ينصح أدونيس الشاعر بـ :

قل كلمتك وامض
زد سعة الأرض

هذا الاختفاء الغامض في الحكاية التي قدمها **أولوج** عن مريريدة كان تعلة للبعض للإدّعاء بأن مريريدة لم توجد أبدا وهي من صنع خيال **أولوج** وأنه جمع من خلالها ما سمعه من شعر شفوي متفرق في الأطلس الكبير. غير أن قراءة الديوان بتأن لا تسعف هواة إنكار كل شيء، فهناك ومن خلال معظم القصائد تجربة وجودية أصيلة ومتسقة وملتصقة بشكل مبهر بعادات وطقوس وتمثلات ساكنة وادي تاساوت .. " فأغاني تاساوت " ليست تجميعا لمنتخبات شعرية إنها تجميع لنفثات صدر مكروب (باستثناء قصائد سيدي علي إيباقلوين) إزاء عالم قاس وغريب أخذ منها كل شيء ومنحها القصيدة فقط. لذا تحضر كل أشياء تحضر جميعها وهي تتفرس في هذا العالم مزدحمة ونافرة في فمها، أليفة ومتوحشة، جذلى وباكية، صغيرة وكبيرة، مبتذلة وعظيمة وخرافية، رغم أن كل شيء زائل وعابر. الشاعر يولد شاعرا أو لا يكون، والشعر

متطلب فهو إن لم يبدأ معك الطريق من اولها فهو لا يرضى أبدا بأن يلتحق بك في منتصفها أو في نهايتها. لقد بنت مريريدة ومن عناصر بسيطة ومتناثرة، من أسمال وجود شقي في طبيعة وتضاريس قاسية، ومن حطام حياة عرفت فيها تقريبا كل شيء، رغم صغر سنها حين إلتقت **بأولوج**، عالما شعريا كاملا ومنسجما. لم ينجح هو نفسه في كل نصوصه التي خصصها لأصحابه الأمازيغ من أن يبدع شبيها له، أو يقترب، ولو قليلا من قوته.

هل نقل **أولوج** وبأمانة شديدة أشعار مريريدة للغته ؟ أم أنه تعهدها بقدرته الشعرية، وجودها، وأسقط وأضاف، وقام بخيانة مزدوجة للنص، خيانة الترجمة في حد ذاتها، وخيانة ترويض" نصوص متوحشة " وجعلها "أليفة" مستساغة، تكاد تشبه ما تتوفر عليه كل لغة من شعر شعبي وشفوي ؟ يصعب الجواب في ظل فقدان النص الأصلي. غير أنه يجب الإقرار **لأولوج** بأنه حاول جاهدا بأن لا يترجم فقط كلمات بل يترجم على الأخص روح النص الشفوي الأمازيغي القائمة على تداخل مخصب بين الغنائي والحكائي وعلى تكرار لازمة تمنحه إيقاعا داخليا وتحد من دفقه ليسهل تذكره وترديده. وعلى ثراء لغوي مدهش تحضر فيه فهرسة كاملة للحياة اليومية وللطبيعة والكائنات المحيطة بها. وحاول أن يخلق تعايشا صعبا بين الفرنسية والأمازيغية وذلك بمحافظته على بعض الصيغ والكلمات الأمازيغية داخل النص الفرنسي، وكأن الأمازيغية تقوم من خلاله بغزو مضاد للغة المستعمر. غير أن الإشارة هنا واجبة لبعض القصائد التي تبدو فيها صنعة أولوج وتدخله لمنح النص عمقا إنسانيا من قبيل حديث بعض القصائد مثل قصيدتي قوس قزح وإبتهال للقمر عن الخصوبة والإنبعاث. فإن كان الشعر الشفوي الأمازيغي يلامس وبشكل رمزي هذه المفاهيم فإنه لا يتمثلها ولا يملك القدرة اللغوية للتعبير عنها. ومن قبيل أيضا ذكر مريريدة للكريستال هي لا تعرف البرتقال ولا الورد كما أشارت في إحدى قصائدها، ومثل وصفه للغد بأنه ثقب أسود. تلك الصيغ وغيرها تتعارض مع إقرار أولوج نفسه في مقدمته بأن " معجم تشلحيت فقير جدا" هل الأمر يتعلق هنا بتأويل محدود ينقذ بعض التعبيرات من حرفيتها المستغلقة ، كما ذهب المترجم في مقدمته ؟ أم أن الأمر يتعدى ذلك ليصل إلى إعادة صياغة كاملة لبعض نصوص مريريدة ؟ لا أملك جوابا محددا، لكن

ومقابل معظم قصائد الديوان العميقة في بساطتها والمتناغمة كلية مع أفق واد يعيش انكفاء سرمديا على الذات ، قصائد بمعجم لا يفيض عن حاجة ما يحتاجه الناس في يومي يكرر نفسه، هناك قصائد يبدو أنها صعدت من نفثات صدر مكروب لبنت بسيطة إلى حذق شعر متطور وعارف بدقائق بناء الصورة الشعرية وتوليد المعنى.

لم تنشغل قصائد مريريدة نايت عتيق باستعراض صدمة أهلها إزاء الدخول الدامي للمستعمر الفرنسي ولم تترك للتاريخ بأهواله الجسام سوى حيز صغير لكنه مثقل بالدلالات حتى أنه يشكل الخلفية العميقة لمعظم القصائد التي نرى من خلالها الجريمة ولا نرى المجرم إلا فيما خلفه وراءه من أدلة جنائية. لقد أمسكت الآلة الرهيبة للمستعمر بتلابيب الوادي الصغير وقذفت به في العالم الكبير، فصار أهله الذين لم يكونوا يتجاوزون المراعي والأسواق في تحركاتهم يثخنون بعيدا، بعيدا جدا. يقطعون بحارا ويشاركون في حروب في آخر الدنيا وينخرطون في الرحى الرهيبة للتقدم، تاركين للأمهات وللشيوخ وللصبايا في سن الزواج ألم الفراق وفراغ الهجر. إن أسوأ ما يمكن أن يفعله لك الاتصال بالعالم هو أن يريك رغبات وملذات وحاجات جديدة ويعذبك بشكل سادي في مسعاك للحصول عليها. كانت فرنسا في حاجة لأرواح جسورة في حروبها الكثيرة، وإلى سواعد لمعاملها، وإلى نساء للترويح عن جنودها، ووجدت في بسطاء الوادي حطبا جيدا لكل ذلك. ومثل صياد ماكر كانت تري ضحاياها الحب الموجود في آخر الطريق وتخفي الشباك التي ستلتقطهم واحدا واحدا قبل الوصول إليها. لم يكن أهل الوادي يعرفون عذابات وتمزقات وغموض الطريق التي صاروا يسيرون فيها تتخايل أمامهم وعود سعادة كاذبة، لذا تبتهل مريريدة لريح جبل تيزولا وجبل أمصود :

" أبعدا الرغبات التي تطرد من البلد
الشبان المتعطشين للمال "

وهكذا صار من النادر أن تجد بيتا في الوادي ليس له قريب في البعيد أو أن تجد قلبا لا يلغ فيه نصل الفراق والفقد. يموت الشبان جماعات في الحروب لا يعرف حتى مكانها ومبرراتها أو تنقطع أخبارهم نهائيا ويعجز

البعض الآخر عن العودة الخائبة بكل تلك الجراح التي تثقل أرواحهم وحتى إذا عادوا فإنهم يأتون صامتين ذاهلين يدور بداخلهم صراع رهيب بين عالمين. ولعل قصيدة ماك إيارن، باسو؟ (ما بك، باسو؟) هي أروع تصوير لعذابات العودة. " فالأشياء التي عرفها باسو لم تعد تكلمه " ولم يعد يرتاح لا هنا ولا هناك، كل شيء يخزه ويؤلمه، ولا يعرف ما به غير أن الشاعرة تجيبه :

" إنه حزين ولا يعرف السبب
لماذا ؟ مريريدة ستقول لك، باسو:
لقد عشت طويلا بعيدا عن البلد "

يموت من يموت، ويعود من يعود، حتى من يأتون بمعاشهم وميدالياتهم وأعطابهم يأتون لا أكثر تجربة بل بلا تجربة تقريبا، على حد تعبير فالتر بنيامين. فالحروب لا تعلم شيئا والرعب أجوف وفارغ ولا نخرج منه إلا جوعى للحياة التي لن نعود قادرين، بعد كل ما رأينا، على تذوقها مثلما كنا.

يسير الشبان لنار الحروب وعرق المعامل وتسير البنات لقذارة المواخير وبؤسها ومثلما يؤجر الشبان دماءهم وعضلاتهم تؤجر البنات أعضاءهن الجنسية، إنهن، في نظر مريريدة لمهنتها عاملات جنس بكل دلالة الكلمة يكدحن طيلة النهار، ويتداخل في ذواتهن البائع والسلعة، وتتوزع حياتهن بين الحصير وحوض الاغتسال. غير أن باب العودة، وبخلاف الشبان، يكاد يسد في وجوههن.

حظيت رؤية مريريدة لمهنتها وجسدها باهتمام زائد لدى القلة الذين انتبهوا للشاعرة. وذهب بعضهم، وفي إسقاط لما يعتمل حاليا من حراك يخص المسألة النسائية، إلى اعتبارها متمردة، ومثالا للمرأة المعتدة بجسدها وبذاتها والثائرة على الأعراف الاجتماعية وعلى كل ما يبقي المرأة رازحة تحت سلطة ذكورية فجة. غير أن أشعار مريريدة ينبغي أن تقرأ كما هي لا كما يراد لها أن تكون، فهي لم تسع ابدا إلى مواجهة مجتمعها بقدر ما نددت بقدرها وباللعنة أو السحر الذي سلط عليها وجعل منها " امرأة لكل الرجال "، وككل الأرواح الكبيرة والمعذبة بصروف الوجود، كان لها وعي شقي تجاه مهنتها : فهي

تمنحها المتعة والرفاه بعيدا عن الحياة الكئيبة والمرهقة للنساء اللواتي يلدن بكثرة ويكدحن طيلة النهار لتلبية حاجات لا حصر لها، وتجللها بالعار وتحرمها من " أفراح الزواج والأمومة " وتجعلها نصب نظرات النساء الأخريات الشزراء والمتقززة. وجسدها الذي هو ملك لها لا ينجو هو ايضا من هذا الوعي الشقي فهي تتعهده بالعناية وتكيل له المديح ضدا في الحاسدات الذميمات، لكنها تريد أن تحرقه أيضا لأنه مباع ومدنس من طرف عشاق عابرين وسيئين، ولأن المهنة القاسية تمتهنه بتشييئه فيتحول إلى ما يشبه شكوة تخض كل يوم وبتحويله لأداء عمل بهيمي مثل حمار يجر بدون توقف حبل البئر.

الجنس والحب لدى مريريدة نداء للطبيعة داخل الكائن. ومثلما ينقاد المدق لرغبته الصماء ويهوي نحو الهاون، ومثلما تعشق المطرقة السندان فإن عضوي كل من الذكر والأنثى يهفوان لبعضهما في عدالة طبيعية تجعل منهما في نهاية العملية الجنسية بريئي الذمة تجاه بعضهما. ومهما حاول النفاق الاجتماعي والأعراف السيطرة على الجنس وجعله مباحا فقط في إطار عقد الزواج فهو هنا يسكن للحظة، متحفزا وملحاحا ينتظر ليلة حارة في العزيب أو غياب زوج أو وجود دغل يسهل التستر فيه ليحقق نفسه. وبما أن " الأمس دخان والغد غمام " فإن نداء اللحظة ينتصر دوما رغم أنه يخلف ندما قاتلا وتقززا ورغم انه يكون مليئا بالوعود الكاذبة والخادعة لرجال متعجلين لنيل متعة عابرة. عظمة الجنس وتفاهته، في الآن نفسه، بالنسبة لمريريدة، هو أنه وليد اللحظة الكثيفة والنورانية التي تقدح شررا ترسله العين إلى القلب مباشرة. فهل نمنع نحلة من ارتشاف رحيق زهرة يتضوع عطرها ؟ لكن هذه اللحظة عابرة ويعقبها دوما حساب اجتماعي عسير، إذ لا تخلو اللقاءات الجنسية من تبعات فادحة مثل الحمل والإحساس بالعار وتقديم موضوع أثير للفضوليين والمتلصصين والنمامين الذين تمتلئ بهم وبسم أفواههم القرى والمداشر. الدعارة طريق محفوف بالأسى والوعود الخائبة والمهانة اليومية لذا فمريريدة تنصح راعيات واديها بأن لا يخرجن منه وأن لا يفرطن في تلك الحياة البسيطة والمأمونة والبهيجة بسراب حياة لن تمنحهن إلا التعاسة. فنحن لا نعرف قيمة شيء إلا حين نفقده.

وأنا أقرأ أشعار مريريدة، وأنا أترجمها كنت أستحضر دوما فريدا كالو الفنانة المكسيكية التي عاشت آلاما لم يعشها أحد. وتهتكت مثلما لم تفعل إمرأة، وضاجعت كل من لقيته تقريبا ورغم أنها لم تكن تسيطر على نار جسدها، مثل مريريدة تماما، فإن قلبها كان ممتلئا بحب رجل واحد هو رسام الجداريات الكبير دييغو ريفيرا " الذي لم تحب أحدا كما احببته، ولم يعذبها احد كما عذبها ". ومثلما تصعد حقول الرماد وبعد أن يتبدد الدخان زهرة معجزة وملغزة، تمكنت فريدا كالو في حياة قلقة وممزقة أنهتها مصلوبة في سرير للعذاب الشديد من أن ترسم بورتريهات مذهلة لها. لا يولد الجمال أحيانا إلا في قلب العذاب والدمار " ولدت مومسا، ولدت رسامة.. " هكذا قالت فريدا في مذكراتها وكأنها تتحدث بلسان مريريدة التي ولدت مومسا وشاعرة في الآن نفسه. وتمكنت بالشعر وحده من أن تستعيد واديها بتفاصيله الأشد صغرا وتستبقيه داخل صدرها تماما مثلما تمكنت فريدا من أن تستعيد جسدها المعطوب وتنثره في قران مع الكون محلقة به، في صور سوريالية، في سماوات وفي لقاءات مع كائنات لم يعد بإمكانه هو المشلول الاقتراب منها.

" أغاني تاساوت " أيضا هي أغاني للحب الذي لا يخلف إلا المرارة، الحب المستحيل، الذي يولد في الوقت الخطأ ويكون في الغالب الأعم من طرف واحد، الحب الهش الذي يعصف به الرحيل والرغبات المجنونة، حب الدموع والشكوى والذبول والانتظار اليائس، الحب الذي يترك جراحا وندوبا في الروح لا تندمل أبدا. لا يمكننا أن نعيش بدون حب لكننا حين نحب نتعذب، غير أننا ننسى لنحب من جديد ونتعذب من جديد. وهكذا دواليك " فالسنون تطمر أفضل من الأحجار " تقول مريريدة. كل شيء يتعهده الزمن وحتى حين نعتقد في لحظة بأننا لن نعيش من دون شخص معين تبتسم الأم والجدة بحنان ويقهقه الزمن المنحدر مع الوادي جارفا الصخور وجذوع الأشجار العملاقة والعواطف والأحاسيس والناس. وهناك حيث يموت الناس فرادى وجماعات وتقفر الدور في لمح بصر وتأتي الأخبار بمقتل الشباب في الحروب البعيدة، لا شيء يتكلم هناك ويذعن الوادي له سوى الموت تاركا للأحياء، كما في قصيدة " إيزا " الرائعة، فجيعة عد الفصول منذ أن رحلت وتملي الأماكن التي كانت تهبها بحضورها معنى.

كيف لا يكون الإنسان مؤمنا في واد كل شيء فيه كبير وجبار؟ كيف لا يكون كذلك مع كل ذلك الضعف والهشاشة والاستسلام القدري ليد تبطش كل يوم تقريبا ؟ وكيف لا يكون كذلك وكل شيء من حوله يتكلم ويدلي بدلوه في مصائر الناس : القمم العالية والريح والطيور والأشجار والمعمرة والريح والغمام والرعد والصدى والصخور. تكاد لا تخلو قصيدة في " أغاني تاساوت " من ابتهال لله وللأولياء الصالحين لأنهم وحدهم يضمنون ويحمون ويباركون ويخففون من غلواء طبيعة جبارة ومدمرة. لقد شكل التدين دوما آلية دفاعية كبرى للإنسان الضعيف الذي لا يفهم ما يجري من حوله وتمكن أهل الأودية العميقة والقمم وعبر صيرورة معقدة من أن يصالحوا الإسلام مع المعتقدات الوثنية وأشكال عبادة الطبيعة، ومن أن ينشروا الألوهة في كل ما يحيط بهم. كلما خافوا من شيء قدسوه، وكلما اندهشوا أمام شيء منحوه نفسا من الما وراء، وكلما امتنوا لشيء أدخلوه في شعائر احتفائهم. كانوا يحتاجون لأجوبة وسط واد مليء بالأسئلة الكبرى وتطوع الدين ليمنحهم إياها. في شعر مريريدة يتآخى المقدس والمدنس وتضيع الحدود فيما بينهما. فمقدسها خفيف وشاعري ومتسامح لا يحضر فيه مكر الفقهاء وجشعهم (جريمة الشرف الوحيدة التي ذكرت في القصائد ارتبطت بفقيه) ولا عنف وغل الصحراء. الله رحيم جدا وهو لن يلتفت حتما لصغائر ذوات زرع فيها الحب والشهوة والحسد والنميمة. الله هنا وهو يرى العناء وامتهان الكرامة في الماخور ولو أراد فسيمنح مريريدة قدرا آخر في بيت آخر، مع زوج وطفل وأشغال تقبل عليها بفرح ..

هذه الرؤية الدينية للعالم والقائمة على أن كل ما في الطبيعة يتكلم ويؤثر ويتصل ببعضه البعض، وكل ما فيها مليء بالروح والحكمة إن عرفنا كيف ننصت له ونحاوره، هي التي جعلت الكائنات التي تحفل بها قصائدها (الضفادع، النحل، أشكال الطيور، الكلاب، الماعز، الخنزير ..) لا تحضر كموضوع لفعل الإنسان بل كشركاء كاملين في حياة نتقاسمها معهم. ففي طفولة العالم كانت الكائنات تتبادل الأدوار وتمسخ وتتحول من جماد إلى كائن ومن كائن إلى نبات وفي كل الاتجاهات. لم تكن هناك حدود ولا نواميس تفصل بينها. لذا فحين نتأملها، هنا والآن، فعلينا أن نستحضر بأنها جزء منا

ومن تشكلنا ومندرجة في أخوة كونية " فكل الأشياء مرتبطة ببعضها، ينبغي أن تعلموا أطفالكم بأن الأرض التي تحت أرجلنا ليست سوى رماد الأجداد .. الأرض ليست في ملكية الإنسان، فالإنسان هو الذي في ملكية الأرض " هكذا قال الهندي في خطاب سياتل الشهير 1854، وهكذا تقول مريريدة وهي تعنف من يريد أن يستأثر بأجود المراعي ويترك للآخرين الأماكن الحجرية المقفرة. في الأرض متسع للخير، متسع للجميع إن تحرر الناس من أنانيتهم المتوحشة .

" أغاني تاساوت " نشيد ملتاع للمرأة، إمرأة الأحزان والنكبات والتجارب المريرة. وهي طفلة، وصبية، وشابة، وإمرأة ناضجة ومجربة، وهي عجوز تخبر المرأة في جسدها وفي روحها القساوة والدموع وتتلظى في نار الفراق والخيانة والتنكر المرير لها كإنسانة. المرأة التي تقاوم وتبعد أحزانها بالأغاني وتؤدي أشغال البيت وأشغال الحقول المميتة وهي تتحامل على وهنها بالتعويذات والأناشيد والتضرع للأولياء، ولا تنال إلا العظام لتلعقها بعد أن يستأثر الرجل باللحم، ولا تنال إلا الوعود الكاذبة لكي ينال الرجل جسدها ويمضي لحاله. مأساة المرأة هي أنها ـ كما ترى مريريدة ـ تحت دوما، تحت الرجل في الممارسة الجنسية وتحته في القيم وفي التراتبية الإجتماعية. ومعظم نكباتها تتأتى من كونها لا تسيطر على جسدها ورغباته المجنونة. فإن كان الإنقياد لنزوة عابرة تجربة مرحة ومسلية للرجل فهو قد يكون تجربة مدمرة للمرأة وفادحة الكلفة على مستقبلها. فالمجتمع يتسامح مع نزوات الرجل ويعتبرها فحولة لكنه قاس مع نزوات المرأة ويعتبرها سقوطا أخلاقيا ومساسا بالشرف والفضيلة. ماذا يفعل الضعيف، المذعن لضعفه وهو يرئ نواميس الطبيعة وحكم الله، أمام القوي المتجبر غير أن يتمرس وراء المكر والخديعة، سلاح المرأة، تقول مريريدة : " البسمة والخديعة " وهي قادرة بهما على ترويض الرجل والسيطرة عليه. فالرجل، هو أيضا، حين يرغب يصاب بالعمى ويصير كالبغل الأرعن، من شأن خصلات شعر أو عجيزة أو ربلة ساق أن تضيعه. الرجل في " أغاني تاساوت " طفل أناني، يريد كل شيء له وحده ، طفل يحب بسرعة وينسى بسرعة ليحب أخرى، بينما تبقى المرأة وكجذع شجرة في غابة

محترقة ثابتة متفجعة تجتر مرارة الحب الضائع. لا تكترث مريريدة لجشع الرجل وأنانيته بقدر ما تندد بقساوة النساء إزاء بعضهن البعض ،" المرأة بلا رحمة تجاه المرأة" تقول. فوراء كل مأساة هناك تدبير خبيث أو سحر أو عين شريرة لإمرأة أخرى ، ووراء كل قلب ممزق لإمرأة، ووراء كل فجيعة، هناك إمرأة أخرى. أسلحة المرأة هي المكر والغواية والنميمة والتلصص، ولتعاسة المرأة ،فإن هذه الأسلحة توجه بالأساس ضد نساء أخريات. تفهم المرأة المرأة، تتمكن الأم والجدة دوما من أن تقرأ ما يعتمل في قلب إبنتهما، وكل مناورات وتصنع المرأة قد تخفى عن الرجل لكن المرأة لا تنطلي عليها. تعلم السر وأخفى، ومن أعواد تبن ملتصقة بعجيزة إمرأة عائدة من الحقول بإمكانها أن تقرأ العملية الجنسية الخاطفة التي قامت بها. المرأة فضاحة، حريصة، متنبهة، ولا شيء يفلت منها .ووادي تاساوت فضاء أمومي بامتياز بمطره وعيونه وقممه ورحيه وأشجاره المقدسة وطيوره، تأنيث سخي متناثر هنا وهناك حتى في عناوين القصائد نفسها (عائشة، مليكة، الرحالية، إيزا، مريريدة، طبيبتة، أزو، أختاه، حبيبة، إيطو، الخاطبة...). يقول تلك القدرة العظيمة على ولادة الخير وعلى الانبعاث وتجديد الأشياء. وادي تاساوت رحم كبير وجنة قاسية لا يجني الخارج والمبتعد عنها إلا المرارة والفجيعة. وادي تاساوت غواية قاتلة ولا فكاك منها.

تنضح أشعار مريريدة بالحكمة فرغم صغر سنها حين أنشدت قصائدها لأولوج فإنها كانت قد راكمت ما يكفي من أحزان ودموع وإحباطات لتتحدث عن الحياة بخبرة الشيوخ. حكمة مريريدة من ذلك الصنف الذي يهبه الإنصات العميق للحياة ويهبه أيضا توال غادر للرزايا. " فلأنها عانت كثيرا مريريدة تقول لك " .والإنسان، فوق هذا ، ليس مطالبا في الوادي بجهد استثنائي ليفهم ما يجري من حوله فكل شيء فيه يتكلم ويرسل إشارات :

" الزنابير ستعلمكما بالقايلة
واليمام بالخريف، والزاغ بالشتاء ..
والترغلة الثملة بالحب
ستغني لكما الإنبعاث "

على الإنسان فقط أن ينتبه لما حوله وأن يقرأ القادم في جناحي طائر وأن يتلقى التباشير في اندفاع الغمام بسرعة نحو الذرى البعيدة. الوادي كتاب مفتوح ومليء بالإشارات والرسائل والمواعظ .والجدود لم يرحلوا كلية ،إنهم هناك في صمت الأحجار، في بذخ الحكايات والمأثورات، وفي صرامة الأعراف، وحتى في متاهات المسارب التي نحتتها حوافر البغال ووقع النعال .. وإن لم يتمكن الإنسان من قراءة كتاب الطبيعة المفتوح أمامه فله نفسه ليتأملها. كم من مرة اعتقد أنه لن ينسى ونسي؟ كم من مرة اعتقد أنه لن يحب وأحب مرة أخرى؟ كم من مرة خاف من شيء سيحدث له ولم يحدث؟ الإنسان في نظر مريريدة قشة في يد الزمن، إنه إنجاز للزمن، " الزمن الذي يطمر أفضل من الأحجار "، الزمن الذي يغسل القلوب ويلملم الجراح، الزمن الذي يفرق متى شاء ويجمع متى شاء، الزمن الذي يتوزع بين "ماض كالدخان ومستقبل كالغمام"، ولا يترك للإنسان في الواقع، إلا اللحظة التي هو فيها. لذا عليه أن لا يفسدها بالمخاوف وعليه أن يستمتع بها ويستنفدها كلية في ضرب من الأبيقورية الفرحة والمتصالحة مع الرغبات الطبيعية والضرورية.

اغنم اليوم، الساعة واللحظة
لكي تتذوق كل ملذات هذه الدنيا ...
أخي، أختي لن تحمل معك
إلا ما رأيت وما أكلت وما شربت وما لبست

صوت مريريدة هو صوت الأعالي المدوي الذي رضعته من ضفدعة البراري الخضراء الرشيقة (مريريدة بالأمازيغية) رضعته من الطبيعة في قوتها وعنفوانها واندفاعها، وصار بفضل بركة غامضة يذهل الوادي بقوته وصفائه. لقد منحت مريريدة الحق في الشعر من الوادي نفسه وكانت جديرة بهذا التكليف. إئتمنها على أسراره وحكمه وأناسه وأشيائه وكائناته. وحتى وهي فيما يشبه المنفى في أزيلال وحين يكون الجو رائقا تتراءى لها في البعيد القمم العالية والملهمة لواديها وترسل لها نداءه. ومثلما لاذ بدر شاكر السياب وهو يحتضر بجيكور قرية صباه فمريريدة كانت تؤوب لجنة طفولتها كلما أنشدت شعرا. أوبة تجعل كل شيء : الأشغال اليومية في البيت، رعاية القطعان

وتنقيلها للمراعي، أعمال الحقول، الشعائر والأناشيد المصاحبة لأداء بعض الأشغال، والتعويذات التي تقال في لحظات الخوف. آمنت مريريدة مثل أهلها بأن هناك خوافي (جن، غول، أرواح...) تبطش بالناس وتسلط عليهم ما لا طاقة لهم به، ورأت أهل بعض الدور يموتون اتّباعا وبعض القرى تقفر من أهلها، رأت الموت والحياة وهما يتصارعان في الوادي ويتعاتبان و يتخاصران و يخرج أحدهما من الآخر، ورأت نفاق الناس وتسلطهم على بعضهم البعض، ورأت احتقار النساء واعتبارهن في أسفل تراتبية اجتماعية وقيمية، وتلظت فيما رأت، آنذاك ولد بداخلها الشعر كأداة لمجابهة زمن يعصف بكل شيء، ولترويض حنين غامر وللسيطرة على نداء الوادي بداخلها لذا جاءت قصائدها رقيقة ومدوية، ودودة وساخرة، منتقدة ومتواطئة ..

لم تنظم مريريدة شعرها للناس، ولم تفعل ذلك من أجل منفعة ما. شعرها لذاتها، تكتشف من خلاله نفسها ، وتستعيد به واديها حين يهزها الحنين إليه. إنه شعر ذات مجروحة ومعذبة، صنعه المنفى بذلك الإحساس اليومي القاتل : إحساس التواجد في المكان الخطأ، وصنعته مهنة يقتل فيها الإنسان يوميا : مهنة تريك كلبية الإنسان وبهيميته. ورغم وضاعة حياتها وبؤس كل ما يحيط بها فقد كانت، بالشعر وحده، وفي مآسيها الحزينة، تتسامى عن كل شيء وتطاول قمم واديها العالية ...

لو لم يلتقي **رونيه أولوج** بمريريدة لما قرأنا شعرها، فكم من مريريدة أخرى ضاع صوتها في الأعالي لأنها لم تجد من يدونه وينشره في الناس .

عبد الكريم جويطي
بني ملال – الخرواع
2015 -06 -12

إن كلمة poésie كما نعرف وبحسب اشتقاقها الإغريقي، هي، وقبل كل شيء، تعني فعل الإبداع ثم الإبداع نفسه في نوعه الأكثر أصالة وإنسانية. والقصيدة التي يعرفها بولس السينغال كـ : " كلام مريح للقلب والأذن ". ومن جهة أخرى، فالمؤتمر الأول لعلم الإحاثة الإنسانية المنعقد في نيس سنة 1982 قد أكد بأن الإنسان ظهر في إفريقيا منذ 2500.000 سنة وأن إفريقيا بقيت ولمدة طويلة " في طلائع الحضارة " وأقول حتى الألفية الرابعة قبل مجيء المسيح على الأقل حتى إبداع، إلى جانب الكتابة الأولى، أول شعر جدير بهذه الصفة.

وقبل أن أذهب بعيدا، أريد أن أثير الانتباه لخطأ يرتكب دوما وهو مقابلة " افريقيا البيضاء" بـ " إفريقيا السوداء " أو "إفريقيا ما تحت الصحراء" و " إفريقيا الشمالية " هذه التقابلات لا تحيط بشكل كاف بغنى ووحدة، في الآن نفسه، إفريقيا الأم.

وبالفعل، إن عدنا إلى الألفية الخامسة قبل مجيء المسيح، قبل مجيء الساميين والهند وأوروبيين إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، لم يكن التعارض العرقي والثقافي في إفريقيا بين البيض والسود، ولا حتى بين أمازيغ، ومصريين وسود، وإنما بين الأفارقة الكبار والأفارقة الصغار. فهؤلاء الصغار ذوو البشرة الصفراء، كانوا يعيشون في الغابات المدارية وخصوصا الاستوائية، في الوسط حتى أقصى الجنوب، وكانوا يتكلمون لغات إشارة، بينما الأفارقة الكبار الذين كانوا يعيشون في إفريقيا الشمالية في المنطقة السودانية ـ الساحلية كانوا يتكلمون لغات داغمة، مثل المصرية القديمة وكذا اللغات الأمازيغية ولغات الباتو وهكذا وبإنحدارنا مع وادي النيل من الدلتا أو المحيط الأطلسي من مضيق جبل طارق سنجد رجالا ونساء من نفس العرق ويتكلمون لغات داغمة، ولكنهم يكبرون شيئا فشيئا وتسودّ بشرتهم. فالبشرة تنتقل من الأكاجو إلى الأبنوسي. فمنذ الألفية إذن كان التدخل البيولوجي والثقافي قد بدأ وتواصل في إفريقيا، كما حدث في آسيا وأوروبا، هذا ما أغنى، أساسا، الحضارات وقربها من بعضها في نفس الوقت.

إن النصوص التي ستقرأ هنا، مع هذه التوضيحات السابقة، هي أشعار ترجمت عن لهجة أمازيغية، تشلحيت، ويمكن أن نجد مثيلات لها في الجزائر، ولن أقول تونس، حيث إن اللغة الأمازيغية قد اختفت كلية تحت التأثير المترافق للفنيقية واللاتينية والعربية.

إن ما يميز هذه الأشعار الأمازيغية، هو جمالها الإفريقي، وبالفعل، وفيما وراء الترجمة الفرنسية فإننا نجد أنفسنا أمام " كلام مريح للقلب والأذن " كلام مغنى في الغالب، ومؤثر، وهذه هي الخاصية الأولى للأسلوب الشعري، سنرى ونحس بذلك ونحن نقرأ هذه القصائد الأمازيغية، والتي تنتسج وتتخللها الصور المتشابهة والرمزية لأنها دالة، وهذه الدلالة المصورة بالضبط التي تذهب من العقل، الأفضل من الروح إلى القلب للتأثير فيه.

إن الكلام الشعري ليس مريحا فقط للقلب، بل وقبل كل شيء هو مريح للأذن، ومرة أخرى فالحضارة الإنسانية ولدت في إفريقيا، حيث ظهر الشعر لأول مرة، مرتبطا بالغناء ومهدهدا بالشدو، وكما لاحظت ذلك في كل مكان بإفريقيا، يتعلق الأمر بغناء متعدد الأصوات، ولد في قارتنا، مثل الترتيل الكنسي تحديدا في قارتنا حيث لا تتم المصاحبة من خلال المقام الخماسي والرباعي وإنما الخماسي والثلاثي، وهذا يشكل مصاحبة " مبلبلة " حماسة، لكي لا نقول حسية. بل إنني اكتشفت في البلاد المغاربية ترتيلا كنسيا متعدد الأصوات مخبأ تحت أزيد من ألف سنة من التأثير السامي العربي، وقد أخبرت بأن شبيها له يوجد باليمن، بلد مملكة سبأ القديم .

يبقى أن نشير إلى أن هذا الشعر، المغنى بالطريقة الإفريقية، يمكنه أن يكون أيضا منشدا، وموزونا، يتعلق الأمر هنا، بأن تؤدي الترجمة لا إيقاع الكلام المنشد، وهذا الإيقاع في إفريقيا يشكل أساسا من التوازي اللا متماثل، أي بالتكرار الذي لا يكرر نفسه وكما سنلاحظ ونحن نقرأ هذه القصائد ولو مترجمة إلى الفرنسية، سنلتقي غالبا، وبشكل دائم تقريبا، التعبير أو كما سماه مخيلي كاساما " الكلمة الولادة " والتي وهي تكرر نفسها، وتكون ذاتها دوما، ولكنها كلمة أخرى بمكانها أو سياقها، فتحرك القصيدة بالمعنى الاشتقاقي.

حين كنت طالبا، كان الأساتذة يصرون على عدم وجود شعر إفريقي وإنما " نثر موزون فقط " كما لو أن هذا ليس التعريــف العام للشـعر، وفي المقــال الذي أكتبــه لسلسلة «Ce que je crois» أثبت بأن هناك شعرا إفريقيا، بعلم عروضه الأعقد من علم العروض الأوروبي. وقد سجلت، تحديدا، الزمن المضاد ونبراته الحادة .

إن ما أنهك المترجم نفسه في نقله، وأكثر من الإيقاع، هو رخامة الكلمات المنشدة بـ: جناساتها الصوتية، وتقفيتها وجناسات أخرى أو لعب ورغم ذلك فإن هذا اللعب بالأفعال، هذه الإبداعات، المريحة جدا للأذن هي التي تشكل ما هو أساسي في الشعر فمن متعة الآذان متعة الروح.

هذا لأقول بأن " أغاني تاساوت " لا شيء فيها " خشن " ولا " بدائي " إنها مرة أخرى التعبير عن هذه الحضارة الإفريقية التي صاغت الحضارة الإنسانية.

وليس من باب الصدفة، إن كان المغرب، مثله في هذا مثل مصر، يمارس تأثيرا ثقافيا كبيرا في إفريقيا ما وراء الصحراء، وفي كل مكان من العالم، وذلك لأنه وقبل أن ينفتح على العالم الحديث: الأوروأمريكي، فقد بدأ بالتخدر بعمق في النسغ المخصب " الأرض السوداء " كما كان يقول قدماء مصر: إفريقيا الأم وهذا ما تثبته القصائد التالية.

ليوبولد سيدار سنغور

تقــديــم

قصائد هذا الديوان تنتمي لفن خشن ذي بساطة لاذعة، إنها تشبه الموشحات، المنتخبات والقصائد الغنائية ذوات أدوار لعصرنا الوسيط. أخذت هذه القصائد من فم بنت هوى لطيفة ورزينة، مريريدة نايت اعتيق، أمازيغية شابة من تاساوت العليا. هذا الوادي الواقع في " طرف العالم " والذي، ومنذ ألف عام، يشبه نفسه. يتواجد الوادي في قلب الأطلس الكبير المغربي الذي يصعب الوصول إليه، وليست هناك طريق قريبة بإمكانها أن تطاله ...

قبل عبوري في سنة 1927 و 1928 لا أحد من الأوروبيين ذرع عزلات إيسوال وأمشكى وأسيف تيموتا لآيت عفان وتاركديت...

وليست هناك منطقة بإمكانها أن تلهم أفضل سافو الأمازيغية مثل تلك. ألم يقل بلزاك بأن الشعر يريد شيئا ما هائلا وبربريا ومتوحشا؟

في هذه المنطقة التي يشار لها في الخرائط، بضع سنوات بالكاد كـ" منطقة بدون معلومات " ينبع وادي تاساوت من أزيد من ثلاث آلاف متر، في سهوب نجد تاركديت، تحت الأنظار الفاتنة لجبل أغوغا في الشمال (3400م) وقمة مگون (4076 م) في الجنوب. ثم يسير بمياهه الصاخبة التي منحته اسمه، في عمق واد كئيب وعظيم في الآن نفسه محصور بين حاجزين مدوخين أو جوانب وعرة مغطاة بالسنديان والحفصيات والصنوبر الجبلي.

لتاساوت العليا ميزة امتلاك أجمل "تيغرمين" وأكثرها مجازفة في الأطلس الكبير، إنها بنايات مدهشة تتناغم فيها الأصالة والروعة تماما مع صرامة المحيط، بنيت هذه القصبات ذوات ثلاث أو أربع أو خمس طبقات ذوات الحيطان الضخمة المزودة ببرج في كل زاوية، ويصل علوها أحيانا إلى عشرين مترا، بالحجر بلا ملاط ولا ورقة، ونبقى مبهورين أمام جسارة البناة. تقوي روافد من السنديان أو الصنوبر مركّبة أفقيا البناء، وتقاوم بنجاح متفاوت التصدعات العمودية التي لا يمكن تلافيها في جدران بدائية كتلك. ولهذا الضرب من التدعيم (" لعقود ") أثر جيد وغريب.

تسند أبراج الطبقة الموالية بمرقب أو اثنين (" تاغنزيرت ") وتبرز في الجدار فتكمل منح " تيغرمت " ملمح قلعة قروسطية. إن مشهد هذه البروج السوداء، الحمراء، والبنفسجية، والصفراء والداكنة، بحسب لون الحجر المبنية به، بجدرانها التي تتخللها الروافد الخشبية، يترك انطباعا لا ينمحي.

بقيت الساكنة القليلة، في حضن جبالها، المحفوفة بالصعاب، مجهولة حتى بداية هذا القرن، وهكذا ولأنها بقيت في منأى عن أي احتكاك مع باقي العالم، فقد ظلت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها العريقة.

وحتى يتسنى فهم الحياة الاجتماعية لهذا الجزء من الأطلس، ينبغي طلب سر ذلك في شكل البلد، فالطبيعة وقد غطت هذه المنطقة بشبكة معقدة من الجبال تحرزها انقصافات عميقة، هيئتها مسبقا للحياة الذاتية والتجزيء، فالعشائر القديمة عاشت وهي متمرسة وراء دفاعات طبيعية منيعة منذ الأزمنة السحيقة، وفية لمخبئها، دون ذوبان أحدهما في الآخر رغم أنهما جيران، فالتضاريس العنيفة ركنت كل واحد منهما في واديه، وكم بدت لي هذه العشائر فرحة في عزلتها القديمة والشرسة، في بساطتها النشطة، في جهلها وفي حكمتها اللاواعية، حكمة البدائي الذي يعيش بالقرب من الطبيعة !

فهنا في كل الأحوال مازال بإمكاننا اليوم الوقوف على كل أصالة وطراوة الروح الأمازيغية وهنا أيضا تفتق شعر غريب، غريب وخشن، ولن تعطي الشذرات المنشورة هنا لأول مرة سوى فكرة مبتسرة عنه.

لترجمة مثل هذه القصائد، ينبغي إتقان اللغة وينبغي أيضا امتلاك معرفة عميقة بالشعائر والعادات والتقاليد. لكن وإن توفر هذان الشرطان فكيف يمكن نقل كل سحر تلك الصور، تلك الإحالات، وذلك اللعب بالكلمات الذي ليس له مثيل في لغتنا؟ فالترجمة الأكثر وفاء أو الأكثر سدادا لن تصل لاستعادة كلية مذاق مثل هذا الشعر. وأنا على يقين من هذا بعد أن أمضيت سنوات طويلة في اتصال حميم مع الساكنة الأمازيغية.

يمكن للقارئ أن يفكر في أن الإفراط في احترام حرفية لغة القصائد لا يخدم دوما الجوهر اللامادي للقصيدة، وأن استعمال بعض الكلمات وبعض

التعبيرات التي تبدو ذات غنائية سهلة جدا، في الترجمة يضر بالغنائية الأليفة لأغاني مريريدة.

ولإنهاء سوء التفاهم هذا، ينبغي التدقيق بأن لهجة تشلحيت وهي لغة قديمة ما زال الناس يتواصلون بها اليوم غير أن كتابتها طواها النسيان منذ عهود سحيقة. ولا تمتلك إلا معجما فقيرا جدا ترفده مع ذلك صورا بلاغية حية بشكل مدهش ومزخرفة، يفقدها التأويل المتعسف مع كامل الأسف دوما الكثير من نسغها إلا في لغتها الخاصة .

وهكذا فترجمة بعض التعبيرات بشكل حرفي، بالمعنى الضيق للحرفية، سيجعلها كالأحجية في عيني القارئ، لذا يستحسن تأويلها أفضل لمنحها كل دلالاتها.

ولنسجل، بشكل عابر، بأن تشلحيت تشتمل على تباينات طفيفة من قبيلة لقبيلة فاللهجة المحلية لبلاد إيمرحان تختلف عن تلك الشائعة في الأطلس المتوسط أو نتيفة ولسان إيمتوگن ليس هو بالضبط لسان آيت بوولي. ولو أن هذه الملاحظات لا تفيد سوى المستشرق، ومع ذلك فأنا أعتقد أن لها مكانتها هنا لتنبيه القارئ، بما فيه القارئ الأقل علما.

لقد آليت على نفسي ألا أزور، وألا ألفق، وألا أضيع أصالة أغاني تاساوت وذلك بمنحها غنى ودقائق اللغة الفرنسية وعبقرية ثقافتها العالمة.

" حين نرتب الأشياء يقول بيار لوتي، فإننا نزعجها كثيرا وبشكل دائم ..."

هل يراد لنثرية مريريدة أن تترجم إلى إتيكية أو غنغورية في غير زمانها ومبتذلة؟ لم يكن لدي الطموح السيئ لتقديم أشعار الأطلس الكبير بشكل آخر، غير ما هي عليه، خشونة في الشكل والكلمات، لو فعلت ذلك لخنتها مرتين.

لذا، ألزمت نفسي بأن لا أحول هذه الأشعار لأبيات فرنسية مقفاة بإتقان بينما هي تتضمن، ودوما وفي شكل بالكاد يمكن ضبطه نثرا مرتجلا

يكتفي بجناس تقريبي يقوم مقام القافية. وقد يتخذ أحد أبيات مريريدة صدفة، وبشكل عارض ايقاعا بكل ما في الكلمة من معنى، ايقاعا محددا، يمكن أن نلاحظ بأن أغاني بنت أزيلال تتضمن القليل من اللازمات، فالشاعرة تختار، جملة أو جملتين تترددان كاللازمة. إنها تحب وتفرط في الإطناب والقلب البلاغي والتي تعطي لبعض القصائد شكلا مدهشا. أما بالنسبة لعناوين القصائد فهي من إبداعي.

ليس للخيال سوى مكانة ضعيفة في أشعار مريريدة. بل إنه مبعد كلية من قطع طويلة سردية أساسا ومن المآسي الصغيرة المرسومة في محكيات قصيرة يكون فيها التطابق مع الواقع هي الغاية الأسمى. وبالنسبة لنا فهذه المحكيات تشكل دراسة فريدة للعادات بفضلها ننفذ لحميمية الدور.

أما بالنسبة للحب، فهو يظهر في الغالب الأعم عنيفا وهو جسدي أساسا، فقسوة الجبال تفسر قسوة الناس الذين يسكنونها. وكذا فظاظة الأرواح فريسة الشهوات العنيفة القادمة من الإنسان البدائي، والقلوب التي ليس لها ترف الافتتان ـ باستثناء مريريدة ـ في حضن طبيعة جاحدة. حيث يطغى هاجس الخبز اليومي على الحياة برمتها من الطفولة المكدة إلى الشيخوخة المستسلمة ...

إن أقر بوالو، بأن اللاتينية، في كلماتها تجترئ على الشرف، فإن مريريدة ترى بأن للشعر، في دارجتها الأمازيغية الخشنة الحق في التعبير بصيغ تتاخم الفجور والفحش. فالسخافات الأكثر جرأة لا تفزعها، لذا فهي تقولها بسجية تلقائية ومهدئة، حتى أننا نحس كم ستندهش جرأتها الظاهرة وحريتها الساذجة في التعاطي مع اللغة، لمؤاخذتها على بذاءتها وعدم احتشامها.

وهكذا نسمع باندهاش لا يعادله إلا الافتتان ببعض القصائد المفعمة بالطراوة والأحاسيس قصائد تقترب من النوع الغنائي، قصائد لا تفتقر فيها بائعة الهوى الشابة الشاعرة إلى الرقة، وإلى الشفقة، وإلى الروح.

من المحتمل أن مريريدة، وبالنسبة لهذه القصائد قد وجدت الإلهام في مغامراتها العاطفية الخاصة في أفراحها وإخفاقاتها، ولنسجل بأنها كانت تتلذذ بالتذكير بأحزان الفراق. في هذه الأغاني التلقائية واللذيذة رسم واقعي

وأخاذ للبيوت ولحياة جبليي الأطلس الكبير فمريريدة لا تتحدث إلا عن الأشياء الأكثر بساطة، الأكثر يومية، الأكثر ضعة لكنها تتحدث عن كل ذلك بتأثر خشن، وبدقة تجعل الأشياء ملموسة وجلية، إنها تذكرها كما تحس بها وإن كانت الأدوات الشعرية تعوزها أحيانا، فإن الحساسية لا تغيب عنها أبدا .

بصمت خرافات ما قبل الإسلام أغاني تاساوت كما يتخللها التضرع لله وللأولياء الصالحين ولأرواح الجبل، ويتداخل الدين بالسحر، وفي لقائهما من المرارة أكثر مما فيها من الابتهاج والنبرات فيهما أكثر صرامة من كونها باسمة. لكنها تحتفظ دوما بعمق حسي وبميل للملاحظة مثير، وهو في الآن نفسه ساخر، ونافذ البصيرة.

غير أن هذا المحتوى والخيال المحدود، كما أشرنا لذالك آنفا، يجد مبررات لهناته، كما في كل شعر متوحش، فيما يجدها، في الشغف الذي يحركه، وفي وضوح تيماته وتلقائية تعبيره.

وتأتي العديد من الأمثال لتكشف هي الأخرى لنا ذهنا متنبها لطبيعة الأشياء بل أنها تكشف لنا فلسفة متشككة وساخرة حتى .

تشكل اليوم أيضا هذه الأقوال المأثورة، مختلطة بتعليم ديني بسيط جدا، هذه الأقوال المتحدرة من حكمة تقليدية عريقة، صيغ الحس المشترك هذه والتي تشكل في مجتمع بدائي العملة الرائجة للعقل والحكمة، العمق الفكري الوحيد الذي يعيش عليه الأمازيغيون المنعزلون في أوديتهم العليا .

إنه شعر شفوي أساسا، يبدعه الكل، شعر لا يتوافق مع حذق الثقافة العالمة كما أشرت لذلك آنفا. مثلما أن كاسر الحجر الجبلي حين ينقل إلى منطقة تحاذي البحر لا يتكيف ولا يزهر. إنه شعر يسحر ويثير مثله في هذا مثل الأعمال اللامعة، خصوصا حين تتكلف موهبة مثل موهبة مريريدة بتجسيده.

قال مونتان : " إن الشعر الشعبي هو شعر طبيعي خالص وله سذاجاته وهباته التي يطاول فيها ما هو أبهى في الشعر المتقن بحسب المعايير الفنية كما نرى ذلك في أغنيات غاسكون الشعبية والأغاني التي جاءتنا من أمم لا تعرف أي علم ولا حتى الكتابة ".

ولا حتى الكتابة ! مثلما هو الحال لدى أصدقائي الشلوح المنعزلين في تجاويف الصخور والغابات.

هذه السذاجات والهبات نجدها في" lieder " تاساوت الذي غنته لي مريريدة " الضفدعة الخضراء الصغيرة " يوما بعد يوم بحسب مزاجها ووجدها.

هل ينبغي التنصيص هنا، وقد فهم ذلك من قبل، بان كل قصائد هذا الديوان ليست من الإلهام الخاص لمريريدة ؟ لكن القصائد التي تعود لتقليد شفوي عريق، وتلك المتأخرة التي تعود لشاعر جوال علي إيباقلوين، فقد نقلتها لي بفن لا تتقنه إلا هي. وبلهجة انتقالية ـ حيث تخاصر" تامازيغت " وتختلط بـ " تاشلحيت " وهي ميزة المنطقة الممتدة من أطلس أزيلال إلى قلعة مگونة.

مريريدة ... من هي؟ بائعة هوى شابة، كما قلت ذلك، في سوق أزيلال المحاط بأسوارعالية مبنية بالتراب ومدعمة بأبراج بها كوات رمي، وكان يسمح لها بالتواجد هناك هي ومجموعة من البنات على شاكلتها. لم تكن بلغت الثلاثين بعد، هل كانت جميلة ؟ لا أبدا، رغم عينيها الكبيرتين ونظرتهما المعبرة، كما أن تقاسيم وجهها الصلبة ببشرته الفاتحة جدا وبطلائع ذبول سابقة لأوانها تمنحها سمتا فريدا ومؤثرا لا يمكن نسيانه.

كانت مريريدة وفي لحظات حبورها، لا لإرضاء زائريها، تغني وهي تمدد المقاطع الختامية لأبياتها الشعرية كما لو أنها تنغم الأغنية القصيرة بترتيل كنسي غريب. لكن في سوق أزيلال من بإمكانه أن يعير اهتماما حقيقيا لموهبتها ؟ ولأنهم لا يتقنون تاشلحيت فضباط الصف الفرنسيون لفرقة الگوم لم يكونوا ينشغلون بقصائد وأغاني غير مفهومة بالنسبة لهم.

أما بالنسبة " للزبناء " المحليين : گوميون، سائقو شاحنات، تجار وفلاحون فقد كانوا يبدون احتقارا كاملا لشعر مريريدة، فهؤلاء وأولئك يبقون غير مكترثين بهذا الفن لأن متعته مختلفة عن المتعة التي جاؤوا يطلبونها عند بنات السوق...

إبان توقفي في أزيلال تعرفت على الشاعرة الشابة. صديقي المأسوف عليه جوك..من الفرقة 32 للگوم، والذي جاء من دمنات قال لي: " جئتم في وقتكم، لقد قمت لكم باكتشاف، هذه الليلة، سنذهب لشرب الشاي عند مريريدة، لا تطلبوا مني أزيد من هذا، فاللقاء يدخر لكم بدون شك مفاجأة لا تنسى" .

وأي مفاجأة! وأي اكتشاف ! لقد ولد لدي هذا الاكتشاف اهتماما جديا، وبعد ذلك كانت لي فرصة لقاءات متكررة بمريريدة حيث كنت أترجم قصائدها مع الحرص الدائم على احترام ما أمكن " النص الشفوي " لأن تاشلحيت، مثلها مثل اللهجات الأمازيغية، لا تكتب، أو بالأحرى لم تعد تكتب أبدا، وفي العهود السحيقة كانت كتابتها تستعمل الحروف الليبية وحروف " تيفيناغ " الطوارق، المشتقة هي الأخرى من الأبجدية السومرية.

صمتت أغاني تاساوت هذه وتناثرت وسط ملاحظات ووثائق وسمت المسارات التي تتبعتها ما يقارب من نصف قرن في ثنايا الأطلس. واليوم، ومع التلافيق التي أضفتها عليها حدة ذكريات أخاذة وإحساس "never more " فإن هذه الأغاني تكتسي بالنسبة لي تجديدا للفضول والسحر، واستحضارا كثيفا لأصدقائي الساكنين بالأودية العليا، والذين وفي كل مرحلة، يجهدون أنفسهم في تأخير ذهابي ويصيحون مثل أحد أبطال ريديار كيبلين، " لقد تحدثنا بقلب مفتوح واشتركت أيدينا في نفس الطعام وكنت بالنسبة لنا مثل أخ..."

لا تصحو مريريدة أبدا قبل الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ومثل الكاهنة سيديب، فإنها كانت تعتقد أن النوم هو السعادة الأكبر، كان علي انتظار نزول الليل لأجدها لابسة لحافا خفيفا ودبياجا باذخا، مريريدة فائحة بالياسمين، ضاحكة بملء أسنانها الساطعة والمرصعة بلؤلؤ، شفتيها البرتقاليتين والذين، وللأسف، كانا أقل تخانة مما يتوجب. مريريدة الجاهزة للانقياد لغنائيتها الملتهبة أو كآبتها المأتمية.

كانت هناك صديقتان مخلصتان لمريريدة تقتسمان معنا دوما سهراتنا، باشا من زاوية الشيخ وبيبية من مسمغير. واللتان وصلتا إلى أزيلال،

من بلديهما البعيدين جدا، بعد مكابدات لا يمكن تخيلها. كانت الأولى طويلة القامة ونحيفة بقدر ما كانت الثانية قصيرة وممتلئة ولكل واحدة منهما عشرون سنة بالكاد، كانتا وديعتين وبشوشتين، وفتاتين طيبتين في المحصلة رغم ميل غير معتدل للجعة وحنان خاص جعلهما لا تفترقان.

وإبان هذه اللقاءات المحببة كنت قد حررت بإملاء لمريريدة المحكيات والأشعار والأغاني التي كانت الأمازيغية الشابة تعرف جيدا كيف تحكيها أو تغنيها، وتقدم أحيانا لكل واحد من أشعارها صيغة أخرى، وكنت أؤاخذها على ذلك حين أقارن بين ما دونته.

كانت مريريدة تحس، على ما يبدو، بفرح لا تشوبه شائبة وهي تبعث الحياة مجددا لنفسها ولي، في وادي تاساوت، والذي كان له في عينيها ما يشبه السحر الحسي. يهزها دوما حنين غامر وآسر له. ألا تعمل الذكريات الولهى التي نحتفظ بها لبعض الأماكن على تسليتنا تجاه مجريات أحداث سعيدة أو محزنة ؟ ويحضرني هنا ومن الذاكرة البيت الشعري لبياربونوا: " أريد أن أرى مرة أخرى غاو، الگوم الزرق، والماء الأخضر..." وبالحساسية المؤثرة لأولئك الذين اجتثوا من جذورهم بدفء تواصلي، كانت مريريدة تمتلك مقدرة استحضار عدة وقائع، مفرحة ومريرة لطفولتها التي أمضتها وسط السنديان، وتحت شجر الجوز العتيق على مقربة من " إغرم " المخزن ـ القلعة القديمة، وفي المسارب التي تحادي سيل تيموتا، وفوق السطوح المشمسة حيث يجف كوز الذرة، أو في الشتاء في قلب حجرة واطئة مظلمة ومليئة بالدخان.

ربما وجدت مريريدة في هذه الأغاني سلوانا غير مأمول؟

أحيانا، تنزلق دمعة نافرة فوق خدها، ويغيض صوتها، وتترك للحظة ألمها حتى يتبدد، ألمها الذي أشعلته وأذكته الحميا القصوى لاستحضاراتها، إنها وبكل تأكيد كانت تتواءم بصعوبة مع ظروف عيشها والتي لم تكن مهيئة لها إلا بعض الشيء، ظروف فرضتها عليها جملة من الإكراهات.

ورغم أني لا أعرف إلا جزءا يسيرا من تاساوت، فإنها كانت تقتسم معي معتقد الإعجاب والحدب الذي أكنه لواديها العزيز، أجمل واد في

الأطلس الكبير، بملامحه الهائلة والذي يمتد على خمسة وعشرين محطة في الجبل من العيون وسط سهول تاركديت حتى آخر الدير وطرف سهل زمران. ولكن وبين هاتين النقطتين، هناك الفجاج التي لا يمكن الوصول إليها لتاغية والمدرجات الموحشة لآيت عفان ، والشعب المثير لإيشباكن بركامه الهائل، ومگداز القرية المذهلة والفريدة من نوعها، وتاسلي بأبراجها الحمراء وسط منحدرات متوحشة ومدوخة، وتاگوست بأشجار جوزها وارفة الظلال وحورها الفضي، وقصبات أوعاموت بأصالتها التي لا مثيل لها، والصنوبر العملاق لغابة آيت أونديس، والسيلان الأخاذ للأحجار بطول أزيد من ألفين متر، ولأنه شديد الانحدار، فإنه ينزل دفعة واحدة إحدى القمم الخرائبية لجبل تيسيلى. والحيطان الهائلة لإيسفولا حيث كان يقطنها سكان كهوف إلى وقت متأخر، يسكنون على بعد ثلاثمائة قدم من الجدول، الجسر الطبيعي لغجدامة، المعلق فوق وبتوازن مقلق، والمجاز الضيق لتاراست حيث يقدم نهر تاساوت في فيضانه محفلا مخيفا يرهب حتى الرجل الجسور..وكل هذه العجائب وأخريات، في الإطار الرائع لهذه الذرى المدهشة.

مازالت تتراءى لي مريريدة ملتحفة حائكا فضفاضا من صوف رهيف " حندير أفركشين " القديم والمحبوك، بخطوطه الأرجوانية، والقرمزية والبيضاء، والذي لم يعد ينسج اليوم. تتخذ وضعا جامدا، دون أن يزري ذلك من أناقتها وجلالها، وحين ترفع مثل عبرقية شعرية ذراعيها الجميلين والمحاطين بدمالج فضية ثقيلة، وشعر كثيف، فاحم السواد حتى أنه كانت له انعكاسات داكنة، يؤطر وجها إلى درجة أن لون بشرتها برقته التي لا يمكن وصفها جعلت الشاعرة تستحق الاسم الوديع أماريليس الذي منحتها إياه في بعض الأحيان والذي كان يجعلها، لبهجتي الكبرى، تبدو مرتبكة بل ومغتاظة ...

وأنا أسمعها تغني للجبال والوديان، مع الحياة اليومية بالقرية، مآسيها العائلية، أفراحها وأتراحها، كنت أوقن بأنها تصل في هذه اللحظات أعلى درجات التسامي في الفكر والعاطفة، وأنه وفي برحاء تحليقها الغنائي، ضرب من الثمالة يخفف من آلامها الأرضية.

وأنا، أكون في تلاحم روحي مع هذه البنت المتوحشة والتي كنت أكتشف، وباندهاش ما انفك يتعاظم، روحا فرحة وكريمة وكم هي فريدة ولا يمكن توقع العثور على مثيل لها في قلب الأطلس الكبير. كنت أحس بأن لهبا ما يسكنها ويحرقها، كما يسكنها حب لهذا الجبل الذي تدين له بإلهام أصيل وفن وموهبة فذة كانت أبعد من أن تعيها.

كنت أحب أن أفهمها بأن الطبيعة ليست هي التي تمنح للفن نفحته الإلهية، بل الفنان هو الذي، يمجدها، ويعيرها، ويمنحها كل ما ترغب في أن تجسده من جلال وسمو.

كان لهذه العبقرية في الإحساس والتعبير الشعريين ، لدى مريريدة، شيئا مبلبلا سيطر على قلب وروح بنت أمية، الصغيرة المتوحشة لمگداز.

بل إنني أشتبه في كون مريريدة، وبطريقتها الخاصة، كانت تعبد قوى الطبيعة كما تشهد على ذلك بعض أغانيها وأشعارها، وهنا أيضا نجد نفسينا نحن الاثنين في نفس درب حلولية متأخرة.

ما هو مآل آلهة شعرنا الأمازيغية ؟

بعد الحرب، كانت لدي الفرصة للعودة مرارا لأزيلال. كانت الدور المخصصة لنساء السوق قد حولت ولا أحد تمكن من أن يقول لي أين تبخرت مريريدة وزميلاتها في التعاسة وفي قريتها مگداز البعيدة، القرية التي كانت مريريدة تنتسب لها بقيت تحرياتي بلا فائدة. ولأن أسئلتي استقبلت استقبالا سيئا، ونظرا للهيئة الغاضبة والمنددة لمحاوري، فإنني حدست بأن مريريدة كانت منبوذة من طرف ذويها، ربما بسبب أخلاقها المنحلة، غير أن بعض الجبليين أكدوا لي باطمئنان أربكني ولم يقنعني بأنها مجهولة في البلد" كنا سنعرف والديها، وعائلتها وسنتذكر هذه " مريريدة " حين كانت تلعب مع أقرانها ولم تحمل بعد لقبا ".

ربما أن مريريدة كذبت علي حين ادعت بأنها ولدت في مگداز، وبوازع من إحساس بالخجل والاحترام لعائلتها حرمت على نفسها تحديد قريتها الحقيقية التي ولدت فيها؟ لكن كيف تأتى لها أن تحدثني بكل تلك التفاصيل والرقة عن هذا الركن الضائع في قلب فجاج أسيف تيموتا؟.

أو ربما هي ولدت ليس في مگداز، ولكن في أحوازه، في تلك الدواوير العريقة والمعلقة في المنحدرات الضيقة لتاساوت؟ هنا أيضا كانت أبحاثي فاشلة.

في سنة 1954، سمح لي الحظ، الهبة الأولى والأخيرة للآلهة، بأن التقي قرب آيت أوريات بآيت بوگماز، بجبلية بدت عليها علامات التقدم في السن، لكنها مازالت قوية وضاحكة، لابسة ثيابا تشهد على رغد عيش بين، كانت تعيش مع والدها الشيخ، وهو عملاق بلحية مخضبة بالحناء، كان مغتبطا بلا حرج من الماضي " العسكري " المريح لابنته...حوالي خمسة عشر سنة تصرمت بسوق أزيلال، كانت إحدى زميلات مريريدة " الناضمة " " الشاعرة " التي تختارها عشاقها ..." قالت لي وبعد عدة محاولات لتنويري، وبعد أن وثقت بي من خلال حديث ودي ووعدي لها بمكافأة، أفضت لي هذه المومس التي انسحبت من الأعمال (otium cum dignitate) بأن مريريدة غادرت السوق المضياف لكي تعيش في حميمية خالصة مع ح .. وهو مساعد في الگوم، بعد ذلك وقعت في نزاع مع أحد قواد المنطقة فأخذها السرجان س .. إلى مركز تاگلفت وجعلها خليلته لبعض الوقت.

قادتني التحريات الصعبة التي واصلتها إلى تاگلفت و واويزغت وبني ملال إلا أنها لم تبدد الغموض الذي يلف مصير مريريدة .

هل عادت مريريدة، وقد أرهقتها هذه التقلبات، إلى الوادي السري مسقط رأسها؟ أو أو انتهى بها المطاف إلى بعض دور الدار البيضاء أو فاس؟

في هذه الحالة، وقد ابتعدت عن تاساوت، والذي أعتقد أنه موطنها الأصلي، ستكون مثل الميتة، فعنها أيضا تمكن شاتوبريان من القول: " إنها نبتة من الجبل، ينبغي أن تكون جذورها في الصخر، إنها لن تزهر إن لم تعنف من طرف الريح والأمطار. فتراب ومأمن وشمس السهل تجعلها تموت ".

مريريدة، منذ لقائنا الأول، كم من سنة تصرمت! فالزمن الذي لا ينغصه شيء، لا حب ولا حقد، تبدد حتى آخر رماد الذكريات التي نعتقد أنها ab imo pectore دائمة النضارة لأنه، وبقدر ما نتقدم في الحياة، فإننا نتجرع

مسبقا من منابع ليليت، النسيان هذا المخدر الذي يشق الطريق نحو العدم ويطمس شيئا فشيئا الوجوه والأشياء التي تتبدد بدون أن تنتبه لذلك.

هذا ما أحست به جيدا مريريدة حين صاحت في " طريق النسيان ":
" ... أر ـ مديلن إياسگواسن إيوف إزران ... "

(السنون تدثر أفضل من الأحجار...)

مريريدة ! مريريدة ! لتكن أغانيك، قصائدك الرعوية والغزلية، وأناشيدك، وشكاويك وابتهالاتك ولمدة أطول أيضا، وكذكرى للأزمنة السعيدة، كمثل ذلك الظل المنعش " refriger umbra " الذي تحدث عنه لامارتين ...

وقد جاءت من عالم متخلف، ها هي أغاني تاساوت إنها تصلنا مثل ذلك الدخان الأزرق الطويل، العابق بالعفصية والصنوبر، والذي يتصاعد في كل ليلة من تجاويف أودية الأطلس الكبير، البعيد جدا رغم أنه على أعتاب أوروبا العجوز.

أتمنى أن لا تكون ترجمتي قد شوهت كثيرا جمالها الطبيعي، الغفل لكنه رغم ذلك شخصي جدا.

رونيه أولوج

" طيبيبتي "[1]

أنا معتادة على رؤيتها، " طيبيبتي"
محلقة، لا تكل، أمام العتبة ...
لأن لها عش تحت إفريز الباب.
أراها بعنقها الأزرق وريشها الأصهب ...
تتقافز تحت رجلي، واثقة ورشيقة.
وغناؤها صاخب كـ " نفار رمضان "
أو شاك وحزين حد البكاء.
حين أقول لها: " لالة طيبيبتة، ما د ـ إيوشكان[2] ؟ ... "
يجيبني صياحها الصغير والطويل والناعم جدا.
يؤكد الجميع بأن طيبيبة تعلن مجيء زوار.
إنها لا تكذب أبدا، لأنني ـ أستسمحكم ـ
مهنتي تقتضي بأن يكون لي دوما زوار ...
وحين تختفي طويلا، طويلا جدا،
ينقصني شيء لا أعرف كنهه.
فغيابها يخلق لدي قلقا غريبا.
إنها تشكل بعضا مني.
أحبها بحنان، كما تحب طفلا.
وأعتقد أنها تحبني أيضا، " طيبيبتي "
لتشملها عناية الله !
... كم كان قلبي حزينا وأنا أفرج باب الدار
وفي الوقت الذي كان فيه الضباب يدثر أزيلال[3]،
لم أسمع تحيتها الصباحية ...
وفوق العتبة : الجناحان ممددان والعينان مطفأتان
كانت هناك " طيبيبتي "، ميّتة، " طيبيبتي "...

1 طيبيبتة : الاسم الأمازيغي لطائر الدّرسة المنزلي
2 ماذا هناك ؟
3 مدينة صغيرة لا تبعد كثيرا عن وادي تاساوت

لا الريح ولا الغمام

يذرو الريح الأوراق الميتة لشجر الجوز،
والتبن الأبيض الذي فضل في باحة الدرس،
والثياب المنشورة والمنسية في السطح العالي.

الغمام الأبيض يسير في السماء،
يتتبع بعضه فوق ذرى أناس الشياه[1]
ويرحل إلى الأبد، محملا بالمطر.

المياه المزمجرة والسريعة في تاساوت
جارة معها ، ليل نهار، وبصخب كبير، وبدون هوادة، الأغصان المكسورة
والحصى الأملس.

أيام البرد الأولى للخريف تطرد اليمام
الذي يطير من الحور الأجرد
وينزل في صمت الوادي الذي يتساقط فيه الثلج.

لكن لا الريح، ولا الغمام، يا قلبي !
لا السيل، ولا اليمام، يا قلبي !
سيحملون حزني الأسود معهم ...

1 أناس الشياه : آيت بوولّي بالأمازيغية .

ماك إيارين[1]، باسو؟

ما بك، باسو، لكن هل تعرف أنت نفسك ما بك؟
إنه هنا باسو من آيت إسكاد ...
إنه هنا باسو... وليس هنا...
رأسه في مكان آخر، وعيناه أيضا.

يسمع أصواتا من هناك، باسو.
يرى أناسا من الأعالي، باسو.
يذهب وحيدا يجول في البادية،
بدون هدف، ساهيا، في ماذا يفكر؟
إنه قلق، والقلب مهموم وحزين
مثل كلب فقد سيده.
ويحس دوما وأينما حل بالانزعاج
كما لو أنه يلبس لباس رجل آخر،
مثل اليتيم الذي يقضي أيامه الأولى
وسط العائلة التي احتضنته ...
الأشياء التي يعرفها لم تعد تكلمه.
ثلاثون سنة من الغياب جعلته غريبا بين أهله.
وشيء ما يمنعه من أن يستمتع هنا.
وإن عاد لبلاد الرومي،
فلن يستمتع أكثر ...

إنه حزين دون أن يعرف لماذا.
لماذا؟ مريريدة ستقول لك : يا باسو
لقد عشت طويلا بعيدا عن البلد.

1 ماك إيارين : ما بك ؟

مــريريـــدة

لقبوني بمريريدة، مريريدة،
مريريدة، ضفدعة البراري الخضراء الرشيقة ...
وليس لي، ليس لي عيناها الذهبيتان.
ليس لي، ليس لي عنقها الأبيض
ليس لي، ليس لي رداؤها الأخضر

لي فقط مثلها، مريريدة،
لي " زغاريدي "، " زغاريدي "
التي تصل حتى المراعي،
لي " زغاريدي "، " زغاريدي "
التي يتحدث عنها في كل الوادي
وفي الجهة الأخرى من الجبال
زغاريدي التي تثير الإعجاب والحسد ...

فأنا ومنذ خطواتي الأولى في الحقول،
أمسكت برفق بضفدعتي الخضراء الرشيقة،
وهي خائفة ومرتعشة بين يدي
وضعت طويلا عنقها الأبيض
فوق شفتي وأنا صبية وأنا شابة

وهكذا نقلوا إلي المزية العجيبة
لتلك البركة التي تهبهم غناء
غناء أكثر صفاء، وأكثر ارتجاجا وأكثر نقاء
في الليالي المستحمة في نور القمر،
غناء شبيه بالبرد

شبيه برنين المطرقة على السندان
في الجو الأكثر صخبا الذي يسبق المطر ...

وبفضل هبة مريريدة
صرت أدعى : ... مريريدة، مريريدة ...
ومن سيأخذني سيحس
في يده، في يده، خفقان قلبي
كما أحسست بخفقان القلب
المرعوب للضفادع الخضراء بين أصابعي ...

في الليالي المستحمة بنور القمر،
سيدعوني مريريدة، مريريدة،
اللقب الرقيق المحبب لي .
وله سأطلق " زغاريدي " الحادة،
" زغاريدي " التي لا تنتهي،
" زغاريدي " التي يهواها الرجال وتغار منها النساء،
" زغاريدي " التي لم يعرف لها الوادي شبيها أبدا ...

نـــــار شبـــــابي

اعتقدت أنني سأموت، أموت من الحزن

وأنني لن أنساه أبدا، أبدا،
وأنني لن أعوضه بآخرأبدا، أبدا،
لا في قلبي، ولا على حصيري ...

كنت أقول لأمي، باكية :
" لا أحد سيشعل قلبي
ولا أحد سيطمس ذكراه."
وأمي، ببسمة على الشفتين والعينين:
" نار شبابك - أتعرفين أين تضطرم -
نار شبابك ستلتهم أساك.
هذا و أولئك الذين سيقتسمون حصيرك معك
سيطمرون ويمحون ذكراك ...

كان لأمي حكمة الأمهات ...
فحزني راح، راح
كما يتبدد حزام قديم من صوف.
منحت نفسي لأول قادم، كما قد تكونين فعلت،
ثم للثاني، ولآخرين أيضا
في حلكة الليل، في واضحة النهار،
في الفجر، في المغيب، - ستفعلين مثلي ... -
فبدون توقف تضطرم بداخلي نار الشباب.

وكم صار نسيانه بالنسبة لي سهلا !
في مجرى السيل، وسط أعواد الذرة،

حيث الجبهة مرمية على الأرض مثل جذع شجرة ...
أيتها النساء اللواتي تفتك بكن نار الشباب
لا تقلن، أيتها المنافقات بأنكن لم تقمن بنفس الشيء
حين تدفع حمى الحب كل إحساس بالخجل !
هذه الليلة صدر فسيح سينيخ علي
وسيطرد بلا رجعة الحزن ، والأسف والذكرى...

أنا التي اعتقدت أنني سأموت، ـ أتساءل من الآن أي حزن سيسبب لي ذلك ؟
وأنني لن أنساه أبدا، ـ وأتساءل من الآن من هو ؟
كم هو سهل بالنسبة لي أن أعوضه
في قلبي وفي حصيري !

عائشة ! عائشة ! ...

عائشة! عائشة ! مطر خير،
أنت وحدك بإمكانك أن تريحيني،
ببركة الله...

ذهب البرق يمزق السماء ،
الرعد يزمجر وسط السحاب
والصدي يجيب هزيمه.
باسنة الصاعقة تسقط وتنفجر[1]!

وحده مطر الخير بإمكانه أن يريح
البرق، الرعد والصاعقة،
ببركة الله الرحمان الرحيم
ومباركة أولياء الجبل الصالحين.

الحب يشع من عين لعين
يزمجر في القلب الولهان
وقلب ولهان آخر يجيبه.
آنذاك يضرب الحب ويشعل الفكر

الحب هو في،الآن نفسه، البرق اللامع،
والرعد والصاعقة التي لا ترحم
عائشة! مثل الصدى في الوادي،
نظرتك الحارقة أجابت نظرتي
وهاهي تحرقني كلية...

1 يسمي الأمازيغيون الصاعقة : " تامكراز نيگونوان " باسنة السماء.

عائشة! عائشة !مطر خير،
أنت وحدك بإمكانك أن تريحيني،
ببركة الله...

ســـــــــال الــــــدم ...

سال الدم في أﭬودال[1] - ن- تيگليست.
أيها الناس ! أي راع بلغ الخبر؟
حول المراعي، عراك بالأيدي
هؤلاء الذين من تاﭬورت وأولئك الذين من سعيد تامزيرت[2].
أليست الجبال أكثر اتساعا،إذن،
للقطعان، ببركة الله ؟
لماذا يريد الواحد لنفسه فقط المسار الجيد
ويزعم ترك الحجارة والوزال للآخر؟
أ ليس كلّ ما خلق الله ملكا مشتركا ؟
ارتجت المراعي بالصراخ
حتى أن الشياه والسناجيب[3] هربت .
لو لم تكن سوى خصومة عابرة !
يا للحسرة ! يا للحسرة ! كان ثمة قتلى ...
وينبغي دفع الدية، هذا هو العرف
لكن هل المال هو الذي سيطفئ
الحزن والحقد والانتقام ؟
ليجعل الله الوفاق بين الجيران،
وليغفر للضالين وليرعى اليتامى !

---

1 أﭬودال : المرعى
2 حوالي سنة 1930 كان آيت سعيد تامزيرت يمتلكون قطعانا كبيرا وحقوق رعي متنازع عليها. هذه الحقوق كانت سبب خصومات دامية أحيانا مع جبليي الضفة الشمالية آيت الربع، وآيت تيفريست.
3 يتعلق الأمر بسنجاب الصخور

نشيد تاغونجا[1]

" يا تاغونجا ! أم الأماني،
ما إسم زوجك؟
ـ إسم زوجي أنزار[2]..."
يا تاغونجا ! ادعو لنا مباركة السماء
للسنة الجديدة، ومن أجل أمطار وافرة !
نضع كل رجائنا في الله
ونطلب المطر، مطر غزير
يخضر به عشب المراعي
ويتخن به الحب الثمين المنذور للحرث
يا تاغونجا ! أم الأماني،
أدعو مباركة السماء للبلد،
المنبع الأبدي لقوى الخصوبة !
فأنظارنا لا تفارق الغرب
من حيث يصعد السحاب الأسود نحونا.
وننتظر ريح سوس المباركة
التي ستدفع الغمام المثقل بالخير،
بشير الماء، أم كل حياة.
لابسين ثياب العيد،
مستحمين بعناية وطاهرين،
سنجول بك، تاغونجا،
حتى يتمكن تدخلك السامي
من جعل السماوات تبكي بشدة.
..." يا تاغونجا ! أم الأماني،
ما اسم زوجك؟
ـ زوجي اسمه أنزار ..."

1 تاغونجا : شعيرة، تعود بأصولها إلى ليل الأزمنة
2 أنزار : المطر

بلا باس، على خير وبخير ...

" يا سيدي عمور النگودي، حامي المسافرين،
الرعاة، القطعان والحطب
تقبل دعائي وهديتي !
أمن لنا عبور عقبة روغلت
بلا باس، على خير وبخير.
يا سيدي عمور، حامي المسافرين،
حامي أولئك الصاعدين، وأولئك النازلين،
احمنا من الحيوانات الضارة،
احمنا من اللقاءات السيئة،
مع أناس بلا حياء ولا إيمان،
ومن قطاع الطرق عقا أوأهنو
(ما همّ لو كانوا من إيفري أو إيبولوزم
لا نريد معرفة ذلك)
وليغفر الله للضالين !
يا سيدي عمور، احمنا من " دوك الناس "
الذين يلازمون المغارات والأودية.
أمن لنا عبور عقبة روغلت
بلا باس، على خير وبخير!
حتى لا تفقد البغلة الحذوة
قبل الوصول " للكركور" الأعلى.
ولكي يكون الصعود هينا على العاجزين،
على المرأة، والشيخ، يا طير لمراگب.

(نضم اسمك لاسم سيدي عمور).
لكي لا يصحو أولئك الذين يصنعون العاصفة
ويرمون الصخور التي تسد المسرب.
يا سيدي عمور، سيد سيل البلاط
مدنا بعونك
لكي نعبر تيزي ـ ن ـ روغلت
بلا باس، على خير وبخير.

السي علي من إيباقلوين

زوند أگـــــو[1]...

يا لالة حليمة ! احفظي البنات الوحيدات !
من يمكن الوثوق فيه، يا رحمن يا رحيم؟
أنا لن أطمئن أبدا للرجال .
فقسمهم ليس سوى ريح ودخان
وقلوبهم سوداء مثل القطران
حين كنت أحرس البقر في أطراف الذرة
وعدني ابن المقدم كثيرا ...
لكن البغل المرتوي لم يعد أبدا راغبا في الشرب !
و " الطالب " كان ظريفا، ووثقت به
وعدني بالزواج، هو الآخر ...
و " المعون " في رخصة عطلته، بميدالياته،
نالني على هواه، مثل الآخرين
لكن البغل المرتوي لم يعد أبدا راغبا في الشرب !
عشرة شبان، عشرة مترملين، عشرة عجزة
أقسموا لي كثيرا بأنهم سيتزوجونني، وآخرين ...
لكن لا هؤلاء ولا أولئك كانت لهم نية صادقة.
ارتووا عندي، وذهبوا للشرب في مكان آخر
لأن القلب أسود من القطران.
من يمكن الوثوق فيه، يا رحمن يا رحيم؟
أنا لن أطمئن أبدا للرجال
فوعودهم مثل الدخان،
مثل الدخان، " زوند أگـــو ، زوند أگـــو".
والطفل (الذي أحمله في بطني) سأسميه " إيوس ـ ن ـ أربعين[2]".

1 زوند أگـــو : مثل الدخان
2 إبن الأربعين

قلب أكثر برودة ...

باحة أعلى قمة تازارزمت باردة.
وصلب هو الحجر الأسود لإيغيل تازولت
عين آيت حمزة باردة
صلب هو خشب سنديان مسغونان
ثلج آيت عبدي بارد.
صلب هو حديد شفرة خنجري.
لكن كل هذا ليس باردا جدا،
لكن كل هذا ليس صلبا جدا
مثل قلب تلك التي أحب، أحبها بشدة،
تلك التي تستثيرني وتهزأ مني ...
احذري ! أيتها الشريرة الصماء وبلا رحمة !
ستلتقين ربما في يوم قريب
قلبا أكثر برودة وأكثر صلابة من قلبك ...

ضـــــع حجــــرا

يا ابن آدم، إن أردت الحفاظ على سمعتك،
زوجتك، وممتلكاتك وأصدقائك،
الراحة والفرح والعيش في سلام،
ضع حجرا، ضع حجرا على لسانك !
وبالنسبة للباقي، فالله سيدبره.
لحسن من آيت أكديم، رافقه الخير والبركة
لحسن تكلم كثيرا، تكلم كثيرا.
أي جنون أن تتفاخر، وتتباهى،
في الذهاب لسوق إمليل أو سوق توندونت،
تحدث أهل البلد أو الغرباء
والجمعة، بعد أداء صلاة " تاكوسين "
وإن كان لسان لحسن طويلا طويلا
فأطول منه لسان حاسديه.
تباهى، الأهبل، تباهى، لحسن
بامتلاكه لزوجة شابة، جميلة وخلابة...
تباهى، الأهبل، تباهى، لحسن
بامتلاكه لبغل قوي على السير،
خمس بقرات بعجولها، وفرس ممهرة
والحبوب والصوف والسمن والعسل،
وأيضا " بتغرمته[1] " المبنية بحجارة حمراء
بعتبته السعيدة المحملة بالبركة ...

---

1 داره وهي على شكل مخزن

(ليجعلها الله دوما مباركة !)
وما إن علم الشيخ بذلك،
(لإلحاق الأذى بالناس يصيرللحسد أجنحة ورشان)
فدعى لحسن، دعوة لا ترد،
ويمتلك الشيخ طرقا لا يمكن مقاومتها ...
هيا ! لحسن ! ستكون صديق القايد .
بطبيعة الحال، سترافقك زوجتك الجميلة،
مستحمة، وعطرة ولابسة ثياب الأيام الكبيرة.
فهي تعرف جيدا ماذا ينتظر منها.
ولا تنسى " العكر"، و" تزولت "، والحناء !
وبما أنه ينبغي المرور من هنا،
(من هنا، وهل بهذا ستروقه؟)
ويمكنها أن تكون مغناجة جدا، وماجنة جدا.
ستضع عقدها المشكل من حبات العنبر الكبيرة،
ودمالجها الكبيرة، " توينساتها " الفضية
وتاجها المزخرف بالعقيق الأحمر.
هي تعرف بأن عليه أن يغض الطرف، زوجها.
وباتفاق مضمر، لن يتحدثا أبدا.
بالنسبة لهما ومن الآن فصاعدا، لا ندم، ولا غضب، ولا خجل
و بماذا سينفعونهما؟ بما أنه توجب المرور من هنا
وكثر هم من مروا وسيمرون من هناك ...
ليرجع، لحسن، العين ضاحكة والسحنة مبتهجة.
ينبغي معرفة كيفية ضبط النفس في هذه اللعبة،
القلب ممزق، والروح باكية، والقبضتان مشدودتان.

لقد مر لحسن، مردفا زوجته.
ثلاثة قوالب سكر، ديكان، وتيس صغير
(هذه أبسط هدية) سبقوهما
بسرعة، ليأتي، لحسن، فوق بغله الجميل،
بغله الصالح لسخرة الحقول،
وزوجته مزينة للسخرة الليلية ...
بهذا الثمن، يمكن، للحسن، أن يحافظ على
الحبوب، الصوف، السمن والعسل
البقرات الحلوب والفرس المهرة،
فصداقة القايد التي نسجت بدعم من الشيخ،
السلام، السلام على عتبته السعيدة ...
هذا ما يكلفه الإفراط في الكلام، لحسن.
ولكن، للحفاظ على كل هذا، أليس الثمن باهظا جدا؟
يا ابن آدم، ضع حجرا، ضع حجرا على لسانك.
وبالنسبة للباقي، فالله سيدبره.

قـــــوس قـــــزح

منبع قوى الخصوبة والانبعاث،
خطيب المطر، وحزام رخاء الأرض،
هو من أخذ من الحبوب أخضرها وهي في طور العشب،
والأزرق من المياه العميقة لتامدا،
والأصفرمن النحاس الذهبي للحصاد،
والأحمر من نيران يناير وأم عاشور،
إننا نتضرع لك ونطلب منك بركاتك
ونحن نصلي لله صلاة الاستسقاء ...
يداك الاثنتان تغوصان في الشرق،
الواحدة في المنابع العليا لما بين جبلين
والأخرى في بحيرات المراعي الصافية،
ويداك تتصلان ببعضهما فوق الوادي،
جامعتين بهذا السماء والأرض، الأرض والسماء
لمكافأة الإيمان بحصاد وافر
لأولئك الذين لا ينسون صلاة الاستسقاء.
هذا الليل، يبني القمر مسكنه
وهذا الصباح زخة الصافية الكريمة
نشرت في الأزرق الشفاف والمشمس
خمار سيدة السماء ذو الألوان الأربعة
للاحتفال بفرح بعرس الدّيب.
ليتمكن الجدول الأبيض
الأخت الليلية لأم الخصوبة، في الليلة القادمة،

من إعداد مطر جديد فوق البلد
وهي تنادي ريح الغرب المحمل بالبركة.
يا رسول ربنا ! من أجلك أنت
خلق الله الأراضي السبع والسموات السبع !
وقال الله لك يا رسول " لو لم تكن أنت،
لماذا، لماذا؟ كان عليّ أن أخلق السماوات ؟ "
يا رب، إننا نطلب عونك
لكي تسوق إلينا الخير العميم
لحزام السماء وساقية السماء،
القوة الأبدية للخصوبة في النور،
القوة الأبدية للخصوبة في الظل ...
لتمنحنا الخير والسلام
حتى ننجز أعمالنا حتى الحصاد !

العتبة الملعونة

هذه الدار، ولا أحد يمكنه أن يقول لماذا
يشار إليها باسم " تاموجود "،
وهذا الاسم يحمل في نفسه، قبل كل شيء ما يشبه اللعنة
يصر الناس الذين لم ينبهوا على سكنها،
غرباء، بطبيعة الحال، لا يعلمون ...
أكثر من عشرين حازوا ساروتها بست مشابك
ولا أحد منهم أفلت من الأسى
الذي ينيخ على ضيوف العتبة الملعونة.
ليشملهم الله برحمته !
هل دنّست، قلة اليوم الأول؟
وهل بقي ثمن قلة الزيت بدون أداء؟
وهل الطلبة ارتكبوا معصية؟
أو أن عينا زرقاء، وساحرا مكروها
ضربوا إلى الأبد هذه الدار التعيسة.
غير طاهرة، لا يمكن إلا أن تكون غير طاهرة الدار
بسوء الحظ والجن السيئ،
الدار المنذورة، بالانتقام والحسد،
إلى بؤس بلا علاج ومآتم قاسية.
أو أن هناك سبابا للأولياء الصالحين الحماة
أو معصية لله لا تغتفر
يكون ارتكبها باني العتبة الملعونة؟
لست أنا،علي، باب أومارگ من إيباقلوين،
لست أنا من يمكنه أن يجيبكم ...
ليحفظ الله الرحمن الرحيم
دورنا من السحر الضار !

السي علي من إيباقلوين

الرحـــاليـــة

من نافذتي رأيت الرحالية.
كانت تحرك حريرة الشعير
بعصا الراعي الموحلة.
وفي كل مكان يشيدون بنظافة، الرحالية ...

رأيتها تأخذ، الرحالية،
صوفا ليس لها،
صوفا كان يجف في الدغل.
يقال بأنها شريفة جدا، الرحالية ...

رأيتها تضرب، الرحالية،
تضرب بقوة أختها الصغيرة
حتى نزفت البنت المسكينة.
يقال بأنها طيبة ووديعة، الرحالية ...

وفاجأتها ممدّدة، الرحالية،
في أيكة صفصاف كثيف
ورجلاها فوق كتفي " العطار".
يؤكدون بأنها عذراء، الرحالية ...

وحين، ستشيخ كثيرا، الرحالية،
وهي على يقين بأنها ستضلل الناس،
ستصير قوادة متكتمة.
وسيقال عنها بأنها حكيمة وورعة، الرحالية ...

وحين ستموت الرحالية،
بعد حياة عار طويلة،
ستمجد نساء البلد
فضائل أختهن المجيدة، الرحالية ...

إن لم تعمد تلك الأرواح الطيبة، أيتها الرحالية،
إلى كشف دناءاتك، المنافقات ،
التي تظاهرن بجهلها في حياتك.
فالأمر هكذا في هذا العالم السفلي،أيتها الرحالية ...

لن تأخذ معك

أخي، أختي، لن تأخذ، معك
إلا ما رأيت، ما أكلت، ما شربت وما لبست ...
والذهب والمال اللذان يسببان لك الغم والهم
لن يتبعاك إلى الحفرة ويكونا بجانبيك
ستترك هنا ذهبك وما تملكه في الشمس
والفقير الذي لا يملك شيئا، لا يترك شيئا،
هو، بلا حسرة، وأنت بثقل ذويك.
وحين سيفترشان ويلتحفان بالتراب،
من سيميز القايد عن الراعي
الإثنان معدمان الواحد والآخر؟
بماذا تنفع إذن مراكمة النقود، النقود؟
ولن تحملها معك إلى قبرك،
وبقدر ما تراكمها، بقدر ما ترغب فيها أكثر.
البغل الشبعان يرفض الشعير الذي يقدم له
وأنت، وجرابك ملآن، تطلب المزيد دوما ...
رح واسأل قبور المقبرة.
ربما ستسمع صوت الحكمة.
ولأنها عانت، مريريدة تقول لك:
" تجنب بحرص شوك المسارب
حتى تتمكن من قطف الزهور التي تحلو لك.
اغتنم اليوم، الساعة واللحظة
لتتذوق كل ملذات هذه الدنيا
فإن عشت جيدا، وحين يأتي الموت لأخذك،
لن تتحسر على أي شيء في الحياة.
أخي، أختي، لن تأخذ معك
إلا ما رأيت، ما أكلت، ما شربت وما لبست .

طـــائر المــوت

من هو هذا الطائر الكبير الذي يلوث سماءنا،
سماء الرجال الأحرار، آيت عبدي؟
جاء مع الفجر، فوق نومنا الهادئ،
طاف طويلا بدون رفيف أجنحة
كما يحلق اللقلاق، وجناحاه ممدودان.
لكنه كان بالأحرى طيران العقاب البطيء
المتحفز للانقضاض على الزريبة القلقة.
لم نتأخر في الفهم، يا للحسرة !
بأنه كان طائر اللعنة الكبير.
وفجأة، تكالب الجميع، الرعد، والبرق والصواعق
كما لو أن السماء والأرض تمزقتا ...
أيضا وأيضا رعد وبرق وصواعق.
لم تعد هناك لا سماء و لا أرض. لا شيء سوى الخوف.
انهارت الدور الكبيرة والصغيرة
في الجلبة، والنار، والدخان والغبار
وفي ولولة النساء والأطفال
الذين كانوا يحتضرون
بالقرب من أبقارنا وخرافنا المبقورة ...
فقدنا رصاصنا ونحن نصوب نحو الطائر الملعون.
الذي عاد إلى عشه، طائر الشيطان.
يا رحمن ويا رحيم، نسألك لماذا،
لماذا اختار طائر الموت قريتنا

ليدمر الدور ويقتل الأطفال
الآن، ينبغي دفن أولادنا
لم تعد لنا سوى العيون للبكاء.
فطائر الموت، ربما، سيعود غدا؟
يبدو أن الرومي يتعامل هكذا مع
الجبليين الأحرار منذ الأبد،
الرجال الأحرار الذين يرفضون " التعرگيبة[1] "...
ما العمل؟ في الرخاء، وفي الشدة، الحمد لله !

السي علي من إيباقلوين

1 تقديم ثور للمستعمر دلالة الإستسلام والخضوع

لمـــــاذا ... ؟

أيتها الجارات، لماذا علي أن أخجل من نفسي؟
أيتها الجارات، لماذا تنظرن إليّ بنظرات شزراء
حيث تغلب الغيرة على الازدراء،
ألأن حفرتي هي مورد عيشي
لا يمكنكن أن تفعلن مثلي، أيتها الجارات !
فالرجال برؤيتكنّ يصابون بالغثيان
وأزواجكنّ، كلما باعوا ثورا
جاؤوا يطرقون بابي ليلا.
الفلاح يعيش من أرضه وبهائمه.
والحداد من الحديد الذي يصنعه
والعطار من المواد الغذائية التي يبيعها.
وكلهم يتعرضون لمؤاخذات زبائنهم ...
وأنا التي لم ألحق أذى بأحد أبدا
(أيمكنكن أن تقلن مثل هذا، أيتها الجارات الطيبات ؟)
أن أكتري شيئا قليلا من جسدي الذي هو في ملكي
دون أن أتعرض لأدنى مؤاخذة،
كما تكترين أيديكن في أشغال الحقول.
تقلن بتقزز" إيطو تبيع نفسها للرجال ! "
أيتها الجارات الطيبات، جربن أن تقمن بنفس الفعل
فأنا جميلة، وطيبة وأجذب الرجال
كما تجذب أزهار الربيع النحل ...
فلماذا أخجل من نفسي، أيتها الجارات الطيبات ؟

شـــــكـــــوى

... " أصدقائي، اذهبوا، اذهبوا لسوق دمنات،

اتركوني وحيدا في محنتي،

اتركوا المسكين عمور من آيت علي ـ ن ـ إيطو

فمرضه لا يعرف له علاج.

بكبرياء مثل صخور الغازي،

كان قلبي صلبا مثلها

والآن، حب تعيس يقهرني.

فأنا ذابل مثل ذرة القائلة

منتظرة، وهي منهارة، ماء السقي.

لم أعرف أبدا الأسى.

وقلبي هو أيضا قد نضب ...

إنه حقل جاءني من إرث

حيث، كما يقال، ينبت الحب المقتسم ...

حرثته فصلا بعد فصل

دون أن أترجى حصادا قريبا.

والأب، المحتقر لي، لا يتكرم بإعطائي جوابا

وبهية، مقهقهة، سمعتها تضحك !

كم... كم... كم[1]

أنت ! أنت ! أنت ! تيميجة[2] إيسكاتفان
بأي سحر سحرتني؟
كيف، كيف أمكن الأمر؟
بقدر ما تخونيني بقدر ما يزداد حبي لك.
أعرف أنك تغيرين عشيقك كل يوم
ومثل قفل الخشب المسكين
أنت تتواءمين مع أي ساروت ...
من أجلك بعت الصوف والحبوب.
وفقدت الهناء والصحة،
وطعم العمل وطعم الحياة.
ولو توقف الأمر عند هذا، أيتها المرأة بلا قلب !
لكن وبسبب خطئك فقدت ماء الوجه،
فأنا أضحوكة أهلي،
وأي رجل يمكنه أن يغفر لك ذلك؟
فالكبرياء يخرج النصل من غمده
والغيرة لا يمكنها إلا أن تولد الانتقام ...
تستحقين مائة مرة الحوذان و " تيفيزا "[3]
العيون مسمولة، والثديان مقطوعان، والبطن مبقور
لكنني أعزل حين تظهرين.
كما لو أنك تمسكين رأسي داخل الماء !
كيف، كيف أمكن الأمر؟
بقدر ما تخونينني بقدر ما يزداد حبي لك.
بأي سحر سحرتني،
أنت، أنت، أنت تيميجة إيسكاتفان

---

1 كم بالأمازيغية : أنت
2 تيميجة : نبتة خضراء ذات رائحة قوية تستعمل كمنسم للشاي
3 تيفيزا : نبتة سامة

أغنية للراعيات الصغيرات لإيشباكن

بينما أنا نائمة، نسج، الجن،
الأسياد الأقوياء للجبال والمياه،
نسج زربية بيضاء من " أوويزرو"
تناثرت فيها التجاويف المليئة بالأعشاب الخضراء و الرقيقة.
الزهور الزرقاء لـ " أمزروي " والخزامى
التي تبقى مفتحة ليل نهار،
في الليل، لاحتضان الحباحب ...
الباقات المستديرة لـ " توشكت " و " تاردمة "
مثلها مثل كومة تبن مذهبة
متناثرة في باحة درس الحبوب.
ينقص الأحمر زربيتي، الأحمر!
وشقائق النعمان فتحت مع طلوع الشمس
والفراشات الصفراء تنتظر لتحط عليها
سقوط دموع الندى الطري ...
وبالنسبة للقطعان الثاغية، فالرعاة العزّل،
ليل نهار، يستقون الماء
من البرك الهادئة والمتلألئة لتيگنوستي.
إنهن مثل عيون مباركة مفتحة نحو السماء
متضرعة لله لكي يرسل عواصف الصيف الرعدية،
وأمطار الغرب الغزيرة وثلج فصل الشتاء !
إن أمكنني أن أشكل باقات من كل الزهور،
من كل زهور زربية المراعي الجميلة
فلن يكون هناك ما يكفي من لفافات الخرطال لجمعهن
ولا بغال كافية لحملهن إلى القرية ...
إنها زربية فسيحة حتى أنني لا أرى حواشيها
زربية أسياد الجبال والمياه ...

تظـــــــــلــــم

إن ظننت أنك ستفعلين ما يحلو لك،
ستذهبين لتنامي في " إتسوان " ميلودة !
اعتقدت أنك في المطحنة، وكنت في السطح
حين آتي في " الظهر"، يكون خبزنا غير ناضج.
وتتركين الأبقار تذهب إلى حقول جيراننا.
ويأتون ليؤاخذونني على الأقوال السامة
التي تحبين أن تسودي بها كل أناس البلد.
أنت مثل فلفل في زلافة حليب !

إن اعتقدت أنك ستفعلين ما يحلو لك،
ستذهبين لتنامي في " أوفدجير" ميلودة !
أين هو الجلباب الذي عليك نسجه ؟
والصوف ينتظر دوما، لم تغزليه.
بقيت ستة أيام في حفل زواج أختك.
والجارة الطيبة هي من قامت بعملك !
وسددت ديونك للعطار.
أنت مثل البرد في حقل فصّة ...

إن اعتقدت أنك ستفعلين ما يحلو لك
ستذهبين لتنامين في " تيفريت " ميلودة !
فالكلب مزق ال " إبوريكسين ".
ولم تقولي شيئا، كما عن الصحن المكسور ...

و " شطاطو" المعار، الذي لم يعد بعد؟
والقلة الفارغة دوما حين أعود في المساء؟
وصندوق السكر المقلوب في الرماد؟
أنت مثل عاصفة رعدية فوق رحى قمح !

إن اعتقدت أنك ستفعلين ما يحلو لك،
ستذهبين لتنامي مع الأبقار، ميلودة !
أين أضعت حزامك الصوفي الأحمر؟
استحملت طويلا تفاهاتك.
ومزاجك السيئ حين أرغب فيك؟
لن يصعب علي اتخاذ زوجة أخرى.
وأحس أن غضبي يتزايد مثل سيل في جدول
أنت مثل غمام يظلم النهار!

ميلودة، لقد فعلت كثيرا ما يحلو لك !
ستذهبين لتنامي عند أمك، ميلودة !

أدارن و أبوجدار

قالت أدارن البلوطة العملاقة :
" سأبقى طويلا في غصني،
راسخة في غلافي الصلب ! "
... إن شاء الله، أدارن، إن شاء الله ...

لو لم تهب ريح الخريف،
لبقيت أدارن في غصنها.
لو لم يكن المنحدر قويا
لما جرفت حتى الجدول.
ولو لم يكن الجدول فائضا،
لكانت قد علقت في الحافة ...
والآن، ماذا تبقى منها؟

قال أبوجدار الصنوبر العملاق:
" سأبقى طويلا في غصني ! "
قويا بحباتي تحت قشورها
... إن شاء الله، أبوجدار، إن شاء الله ...

لو لم تهب ريح الشتاء،
كان أبوجدار سيبقى في غصنه.
لو لم يمر الرعاة من هنا،
لما أخذ من الأرض.

ولو لم يستشعر الرعاة البرد
لما كان قد رمي في النار ...
والآن ماذا تبقى منه؟

ديدننا هو العدم.
يمكن للنهاية أن تكون متباينة بين هذا وذاك،
قريبة أو بعيدة بشكل أو آخر،
لكنها النهاية رغم ذلك
حين يحين الأجل الذي اختاره الله...
" كول ما إيسكر ربي، غير الخير"[1].

1 لا يفعل ربك إلا خيرا

أغنية تاكركاوت[1]

" تاكركاوت ! كاوت ! كاوت ! " اضرب بلا توقف،
اضرب الطاحونة، الراجفة الضاجة !
حتى يتسنى لارتجاجك إنزال الحب
وحتى لا تنام العجوز حادة ...
صخبك ممتع لأسياد الماء.
إن قفزت بسرعة اختنقت الرحى
وإن تكاسلت، سنطحن الريح.
إن تأخرنا أمام الطاحونة النشطة،
فالناس المنتظرون سينفد صبرهم
وسيقولون في كل مكان بأننا في رخاء.
(ليحفظنا الله من الحسّاد !)
" تاكركاوت ! كاوت ! كاوت " اضرب بلا توقف.
ستعرف القرية بأن طاحونتها تحيا
وبإيقاعك الصوتي، يا تاكركاوت،
ليل نهار يتحول الحب إلى دقيق ...
ولوجبة عشائك، أيتها الطاحونة التي لا تكل
ها هي حفنة الحب المذهب التي هي حقك ...
يا رب ! لتبارك الحب والطاحونة !

1 تاكركاوت : الرحى

أثناء الليل في الباحة

أثناء الليل، في الباحة، كانوا يلعبون " تاكورت "[1]،
الشبان الرشيقون لقريتنا.
لكن سعيد هو أكثرهم سدادا ولا يعرف الخوف.
هل شوهد في يوم ما وهو ينكس رأسه؟
حين أراه يجري ويضرب
أحس بالرعشة وتهتز مشاعري.
أثناء الليل، في الباحة، كانوا يلعبون " تاكورت "
الشبان الرشيقون لقريتنا.

لا تستطيع عيناي الافتراق عنه
حين يقفز ويرمي الحصاة البيضاء،
مزمجرة فوق الرؤوس الخائفة.
وأنا أنظر لسعيد الجميل جدا والقوي جدا،
(ليحفظه الله ببركة أولياء البلد الصالحين !)
وفي الليلة الأخرى، انهرت بوداعة،
وقد أصبت بضعف مفاجئ وغريب،
وأنا أرتجف كما لو أنني تحت سحر ما ...

ليس حجرك المستدير، يا سعيد !
إنه شيء آخر من أصابني في قلبي.
انحنى علي وأنا متهاوية في الأرض،
ولم يتمكن من رؤية دواخل عيني.
وبطبيعة الحال، لن أجرؤ أبدا على قول ذلك له،
لكن مرضعتي العجوز، ألا تريد قول ذلك له؟
أثناء الليل، في الباحة، كانوا يلعبون " تاكورت "،
الشبان الرشيقون لقريتنا.

1 تاكورت : الكرة

ريـــــــــك[1]

يقول ناس السهل : ـ ليحفظنا الله منهم ! ـ
" ما فات فات " ويضيفون :
" ما فات مات " ونحن، الآخرين، نقول :
أن يصيد المرء في بركة المستقبل
معناه أن يصيد بصنارة بدون شص
ما يهم بالنسبة لنا، يا إخواني، هو: الآن
هو ما يمكن اعتصاره بين الأيدي.
هو ما يمكن حمله إلى الفم.
هو تلبية رغبات وحاجات اللحظة.
الأمس دخان والغد غمام
والآن يتطلب أفكارنا وجهودنا.
وكلما منحه الله أو سلطه علينا محمود.
لكننا لا نعيش بما مات،
مثلما لا نعيش بما سيأتي ...
وكل ما يدخره الله لنا محمود أيضا.
فورقة الشجرة التي تسقط في الماء لا تصعد المجرى.
لذا لا يمكننا أن نستعين بالماضي.
والصياد الذي ينصب فخا، هل يمكن أن يعرف
أي صيد سيعثر عليه في مطلع الفجر؟
إن الغد، ومهما كان، لا يعود إلا لله.
نسيت بأنني كنت جوعانة وأحسست بالبرد، البارحة.

---

1 ريك : الآن

وأجهل ماذا سيكون عليه الغد، هذا الثقب الأسود.
ولكنني أعرف بأن علي أن آكل اليوم.
إننا لا نتيقن إلا من اللحظة الراهنة
بفضل نعمة الله، الكريم الرحيم.

النـــــــدم

روحي سوداء، وقلبي أسود.
وأنا مترعة بالحزن والحقد.
فمن أحب، أيتها السعادة !
نسيني باكرا، يا للبؤس !
كما يرمى عظم دجاج
بعد التلذذ بلحمه.
على شفتي، ما زالت قبلاته،
والجاحد أشعل في
نارشوق، لم يعد يأتي ليخمده ...
لكن ما يسبب لي غيظا قاسيا،
هو أنني سلمت له نفسي، محبوبي !
والأشرار، بنظرات شزراء
وضحكات هازئة يلاحقونني.
فمن إذن يريد أن يتزوجني،
إن لم يكن لتافه، بلا مال وأقرع ؟
وسيجعلني أتجرع عاري، بلا رحمة
ولن أتجرأ على الشكوى إن هو أساء معاملتي ...

ما هو مستقبلي ؟

عباد الله ! ماذا تتمنون في هذه الدنيا ؟
الصحة، الأكل، الشرب، والعيش في هناء ...
لكن الله وحده يقرر. وكل واحد سيمضي إثر قدره !
... مات عزوز تحت شاحنته المنقلبة
إنه يسوق منذ عشرين سنة.
في سرمت ، فارغة هي القرية والمقبرة مليئة.
أخذت التفويد الكبار والصغار في ثمانية أيام.
في سن الثمانين، سي موح قوي دوما ومتكبر.
حين كان أكثر شبابا كان يقتلع أحجار آيت احمد.
بيهي كان دوما هزيلا ومريضا.
ويتأوه في رفع كأس شاي إلى شفتيه.
وبريك؟ كيف صار فقيرا ؟
كان غنيا. شبه أعمى، وكان يتسول.
والسرجان داوود ينعم بشيخوخة هنية
بمعاشه، وميدالياته، وداره وأبقاره.
وهذا الحظ لم يبتسم لخمسة گوميين من عندنا.
لقد قتلوا، لا ندري أين، في الحرب ...
لقد مضت بلا رجعة الخطى الموقعة لگومييننا ...
وأولئك المنتمون للسابع والأربعين ماتوا في بلاد التونسي ...
وكلثوم الطيبة والوديعة رحلت عنا، هي الأخرى،
وهي تلد ابنها السادس عشر ...
والطاهر النتيفي؟ إنه في علي مومن

في السجن، يا للعار! لعشرين سنة ...
زهرة - بنت مثلي ـ أتصدقون؟ ...
تزوجها القائد ! لكن لننتظر النهاية ...
أيها المؤمنون ! من يمكنه أن يقول ماذا سيكون عليه الغد ؟
وأنا، يا رحمن ويا رحيم،
وأنا، ما هو مستقبلي، ما هو مستقبلي،
حين لن تعود للرجال رغبة في ؟

كيف سيكون لي الوقت ...

كيف سيكون لي الوقت للإصغاء لقلبي
ومن يريد أن يكلمني عن الذي أحب،
عن الذي لا يعرف أنني أحبه إلى درجة ...
لم يبلغ ايدر العشرين من العمر وأوشك أن أبلغها.
وليس لي مساء واحد لكي أفتح له قلبي.
فالعمل المتواصل يملأ كل أيامي.
كيف سيكون لي الوقت للتفكير في الحب؟
فهناك الحبوب التي ينبغي طحنها والأبقار لحلبها،
والقلة إلى العين والنار للطبيخ.
والنهار أقصر بكثير من الأشغال التي يتوجب القيام بها.
وهناك العشب في الحقل والحطب في الغابة،
والخبز الذي يتوجب إنضاجه والغسيل في الجدول.
مهدودة من الإرهاق، أتهاوى في المساء ...
يكون الفجر بعيدا جدا حين أصحو
والليل قد نزل منذ مدة طويلة حين أنام ...
كيف يمكن أن يكون هناك وقت للتفكير في الحب؟

إينكر، إيدا، إيوفان لوكفان[1]

نهض، وذهب والتقى مع الموت،
لأنهم زوجوني لأبيه ...

"... غير محظوظة أنا ! غير محظوظة !
أحلم به طيلة الليل،
أفكر فيه طيلة النهار .
ولأبيه سيزوجونني ...

كان يتدبر أمر اللقاء بي
ويضطرم حبا لي .
بكل كياني، كنت زوجته .
ولأبيه سيزوجونني ...

والده ترمل، صديق دارنا .
قال أبي : نعم لأن للصديق ممتلكات
أريد أن أصرخ أنا أحب الإبن.
ولأبيه سيزوجونني ...

رأيت، المحبوب، للمرة الأخيرة.
هو أيضا لم يعد له ما يبوح به.
فضّل أن يذهب ويصير جنديا.

1 نهض، وذهب والتقى مع الموت

ولأبيه سيزوجونني ...

قال لي: " إن بقيت في الدار،
كيف يمكننا أن نعيش جنبا لجنب؟
يجب إذن أن نفترق إلى الأبد.
ولأبي سيزوجونك ..."

والده ووالدي قالا له: " ابق ! "
" ابق لتكون سعيدا معنا ! "
وقلبه قال له: " لن أكون سعيدا مع أحد.
ولأبي سيزوجونها."

قال: " ليحفظكم الله ويغفر لي !"
وراح، ولا أحد سيشك أبدا
في حبنا وحزننا.
ولأبيه سيزوجونني ...

ـ نهض، وذهب والتقى الموت.
لأنهم زوجوني لأبيه ... "

يا ريح تيزولا

يا ريح تيزولا ! يا ريح أمصود،
فوق السهول والبحار
احمل، احمل خاطرتي
نحو ذلك البعيد، البعيد جدا،
والذي تركني بدون طفل صغير.
يا ريح ! ذكره بأن لا طفل لي !

يا ريح تيزولا ! يا ريح أمصود !
احمل الرغبات التي تطرد من البلد
الشبان المتعطشين للمال،
غير مكترثين بالبنات في سن الزواج، والأمهات
والأهل الذين يبقون في القرية.
يا ريح ! ذكره بأن لا طفل لي !

يا زوجي الذي ذهب بعيدا ، بعيدا جدا،
هل كان يلزمنا مال كثير
مع الصحة والاحتياج القليل
يمكننا تذوق الساعة التي تمضي
و أن نكون سعداء، ببركة الله،
بطفل صغير، ببركة الله...

يا ريح ! يا ريح ! احمل أساي

لكي تنسيني من أنتظر.
فالحياة مرة مثل الدفلى،
لأن المرأة لا يمكنها أن تعيش بدون رجل،
بدون رجل فحل، عسل الحياة...
قد تركني دون طفل صغير.

ريح ! يا ريح ! احمل لي قريبا
غناءه الذي سيصعد الوادي
حين سيرى قريتنا
وصوته الذي سيجعلني أجري، والقلب خفاق،
في المسرب المحاط بسياج أخضر
حيث البيلسان، والنسرين والياسمين البري
سيحيطون بالأزهار لاستقباله ...

أغنية مرتجلة

" قلبي موله بابن سيدي داود
لماذا لم ينظر إلي؟ "
- قلبها موله بابن سيدي داود
من يقول لماذا لم ينظر إليها؟
- لأنه كان يرافق والده !
- لأن ثديك انزلق من قميصك !
- لأن له هموما مالية !
- لأن زنبورا حول أنفه كقبضة !
- لأنه نقل لتوه الغبار!
- لأن الشيخ أرسله للسخرة !
- لأن شريكه أضاع شاة !
- لأن " تاليدرار[1] " سبب له مغصا !
- لأنك جميلة، فلا يجرؤ على النظر إليك !
- لأنه يحبك ونظرتك إليه تحرق قلبه !
... قل له بأن ينتظرك هذه الليلة على مبعدة من القرية
وغدا صباحا إنك أنت من لن يتجرأ على النظر إليه ...

السي علي من إيباقلوين

1 شجيرة ذات أوراق صلبة تطحن وتستعمل كملين معوي

لم يخلق الله مكانا ...

"... أختي، الغريبة عن البلد، لا تندهشي،
لا تندهشي من جهلي :
فعيناي لم تريا أبدا لا الورد ولا البرتقال ...
يقال بأنهما يوجدان، تحت، في البلد الطيب
حيث لا يشعر الناس ولا البهائم ولا النباتات بالبرد
أختي الغريبة التي أتت من السهل
لا تضحكي على بنت الجبل
اللابسة صوفا فظا والماشية حافية.
فالله لم يخلق مكانا للورد
والله لم يخلق مكانا للبرتقال
في حقولنا ومراعينا ...
لم أغادر أبدا قريتي وأشجار الجوز.
ولا أعرف إلا ثمرة القطلب وثمر الزعرور الحمراء
وباقة الحبق الأخضر الوضيعة
التي تبعد عني الحشرات
حين أنام فوق السطح،
حين تكون ليالي الصيف حارة جدا ..."

النحـــــــلة

أيتها النحلة، يا أمة الرسول،

أيتها النحلة المحملة بالبركة،

أنت التي تنتقلين من زهرة لزهرة،

طيري نحو قريتي

وسيري من بنت لبنت ...

وحين تسيرين من بنت لبنت

قولي لكل واحدة منهن اسمي.

وستتعرفين على محبوبتي :

تلك التي ستجهش بالبكاء

حين تنطقين باسمي.

قولي لها بأنني أضطرم حبا

والفراق ينخر ذهني

كما ينخر جذع شجر الجوز،

والحزن يسحق قلبي

كما تسحق الرحى الحبة ...

أيتها النحلة، يا أمة الرسول،

حطي برفق فوق أذنها،

وترجيها أن تنتظر عودتي

فقلبي مفعم بها ...

وإن لم يكن بإمكاني رؤيتها قريبا،

فلن يتبقى لي إلا رجاء واحد:

أن يعجل لحاقي بعالم الأموات

فالقبر أرحم ألف مرة من المنفى

أيتها النحلة، يا أمة الرسول،

أيتها النحلة المحملة بالبركة،

طيري نحو قريتي ...

الطيور الثلاثة

كنت في حقل الفصة الأخضر.
وفوق شجر الحور يغني ثلاثة طيور.
والراعية العجوز تسمعهم
قالت لي الراعية العجوز:
" إن أصغيت للعقعق الهذار،
الخصيم الذي لا يرتاح،
ستصيرين شريرة ومجنونة.
ومن آنذاك سيتخذك رفيقة له؟
... إن أصغيت السمع للنقار الأخضر الحزين،
في الظل الوارف للأوراق
النقار الذي يسائل وهو يضرب كل عود
أين راح حظه الضائع،
فلن تعيشي إلا أياما مريرة وقاتمة
وشغلك لن يعرف لا هدنة ولا راحة.
... لكن اسمعي للترغلة الرقيقة
التي تهدل من الصبح حتى الليل.
كوني مثلها إذن بنتا رقيقة
متحرقة في صروف الهوى ..."
فوق شجر الجوز يغني ثلاثة طيور.

السي علي من إيباقلوين

الزوجة الثانية

لقد جاءت، الغريبة، ولها مكانتها في البيت،
جاءت بوشمها الذي ليس مثل وشمنا[1].
إنها صغيرة، إنها جميلة، كما اشتهاها زوجي.
حتى أن الليالي ليست بالطول الذي يسع شغبهما،
لكن سنرى هل هي مقدامة أيضا في الشغل.
إنها مزينة بالألبسة والمناديل
بألوان براقة مثل ألوان " باگزوا[2] "،
لكن على بشرتها أن تتعود على الصوف الخشن
حين تذهب للاحتطاب، حلب الأبقار أو الطبخ ...
من فم لأذن يلومون زوجي
لا لأنه تزوج امرأة ثانية،
ولكن لأنه جلب للبلد دخيلة،
غريبة، ما نعرفه عنها قليل .
يقال بأن والديها من آيت تاركبوت
أيمكن ألا تكون بنتا لآيت تاركبوت
وتدعي بأنها من آيت بوگماز
اعتقدت بالأحرى بأنها من آيت بودماز،
منذ أن جاءت، لم تعد الدار مثلما كانت

1 لكل قبيلة وشمها الذي يحميها ويميزها عن غيرها
2 الزنبور الذي له ألوان مختلفة

كما لو أن الجدران وعتبة الدار حردت ...

ربما أنا الوحيدة التي تنبهت لذلك،

مثل البغل أمام مزودته الفارغة،

علي أن أقبل مصيري الجديد.

فزوجي سعيد مع زوجته الجديدة.

... أنا أيضا كنت جميلة، لكن زمني مضى ...

إيقاريضن[1]

ـ أتأسف، حقا، أتأسف، مسعودة،
لزواجي منك، مسعودة، لزواجي منك،
مسعودة أنت التي تكذبين اسمك ...
فسنتان من زواجنا، سنتان،
لم تحملا لي إلا الخيبة، كل يوم.
لا نقود، قليل منها، وخيبة، مسعودة ...
سنتان بلا جوز، والخراف أصابها الجذري،
والقرع أصاب الدجاج، وتمزقت خلية النحل،
وبقي بطنك مسطحا مثلما كان في ليلتنا الأولى ...
منذ أن أتيت إلى بيتي العامر،
لم أفتأ أضيع النقود، النقود،
يمكن أن نتحمل بيتا بدون امرأة،
لكن بيتا بدون نقود، نقود،
وبدون بكاء وضحك طفل صغير!
أتأسف، حقا، أتأسف مسعودة ...
ألك، مسعودة، حظ عاثر،
أم أنك مسحورة؟
(ليحفظنا الله !)
- أتأسف، حقا، أتأسف يا زوجي
أتأسف لزواجي منك، يا زوجي، لزواجي منك
أنا مسعودة، التي أكذب اسمي.
لو كان لي، يا زوجي، حظ عاثر

---

1 المال

لو كنت، يا زوجي، مسحورة
وإن لم يشأ الله بعد أن أحمل
يمكنني، ورغم شكواك، أن أجلب لك نقودا
فمن له ثمن زوجتك، يا زوجي ...
خذني إلى سوق الأحد بدمنات،
أو إلى أربعاء واولة،
أو إلى الخميس، السوق الكبير بأزيلال.
وانتدب مناديا عاما، واحد يكفي:
" إننا نبيع مسعودة الجميلة، أنظروا إليها
مزدانة، ومعتنية بنفسها، وعيناها،
وشفتاها، وردفاها اللذان يدعوان الرجل ..."
يلزم مدق جيد لهذا الهاون الجميل !
أين الرجل القوي الذي سيتغلب عليها ؟
أين هو الرجل الغني جدا الذي سيأخذ معه مسعودة ؟
ضعني في المزاد، يا زوجي، في المزاد !
وسيكونون مائة ومائة على إستعداد لملء جرابك،
ملئها بالنقود، كمية، كمية من النقود.
خذ النقود، نقودا كثيرة، خذها بسرعة.
واعتصرها فوق صدرك، نقودك،
ومن هنا لأيام سترى هل النقود،
هل النقود، النقود ستنتظرك بالعتبة،
هل النقود، النقود ستقول لك كلمات رقيقة،
هل النقود، النقود ستبتسم لك، تبتسم لك،
هل النقود، النقود ستقبلك، ستقبلك،
هل النقود، النقود ستفرح لياليك ..."

إبتهال للقمر

قمر، أيها القمر! يا شمس الليل،
يا من ينسج ويفك نسيج الفصول،
أنت يا من تمنح قوتك الهائلة للأرض
الليالي مهد الخصوبة
أنت الذي علمت لأناس الحقول
الأيام المواتية والأيام السيئة
لمختلف أشغال الحقول،
قمر، أنت الذي تقرر في أمر الولادات والتفقيس،
أنت الذي تجعل من البذار عقيما أو كريما،
أنت الذي تنفخ الرياح الليلية الحارقة
الرياح التي تجفف وتقتل قلب الشعير الغض،
أنت الذي تثقل برداء الجليد المميت،
نحن نطلب رحمتك، ضعافا كما نحن.
يا منجل اليد الكريمة،
يا منجل اليد السيئـــة،
يا أيتها الرحى الذهبية التي تطحن حنطة النجوم،
يا باحة ذهبية لليالي الصيف والشتاء
وسط طريق التبن السماوي،
إننا نطلب عون الله وبركتك
حتى لا تمنحنا إلا الخير،
وحتى تعرف أشغالنا خاتمة طيبة
وحتى تكون السنة مواتية للناس !

الشاب المسكين الساذج

..." توقف أيها الشاب المسكين الساذج، عن التحرش !
فقد عدت للبلد لأرى والدي،
لا للبحث عن زوج ـ ليحفظني الله منه ! ـ
وسأعود قريبا لأزيلال إن شاء الله...
جننتك بما وهبتك إياه في ليلة
حتى أنك، وبخفة، تدعوني لأصير زوجتك.
إنني أعرف كم ستدوم نزوتك !
وماذا بإمكانك أن تعطيني إياه مقابل حريتي؟
قبل ذلك تخلّ عن هذه السحنة المستهجنة
كي لا تشعرني بعار المهنة التي أمتهنها،
هذه المهنة التي بفضلها استمتعت كثيرا ...
وأي مصير آخر يمكنه أن يجعلني أكثر سعادة ؟
وأنت الذي تترجاني بأن أكون لك وحدك،
ماذا يمكنك أن تهبني، قل أيها الشاب الساذج ؟
أيام بدون لحم، وبدون سكر وبدون أغان،
عرق وقذارة الأشغال الشاقة،
روث الإسطبل والثياب النتنة
والدخان المريع للمطبخ المظلم،
بينما تسير أنت لرقص " أدرسي "

وستطلب مني والأمر مؤكد،

بأن ألد أولادا، أولادا، أولادا !

ألا ترى بأنني لم أخلق لهذا؟

اتركني أعود لسوق أزيلال .

إنك تضيع وقتك وتوسلاتك تتعبني .

ففي النهاية لماذا تريدني أن أشتغل

بينما يغدقون علي المال والهدايا؟

فأنا مثل زهر بعطر مسكر

ولا همّ لها سوى التفتح

لكي تتلقى على هواها كل ليلة وكل يوم

طراوة الندى ودغدغة الشمس ..."

... ما تريت[1] ... ؟

"... ماذا تريدين، بنت القرية التحتانية،
لكي أحظى بما تفكرين فيه؟
يقال بأنك لست نفورة
وأنا أيضا أحلم بحضنك.
هاهي قطعة نقدي الوحيدة، الوحيدة.
سيبيعك العطار الصابون المعطر
مشط، ومرآة، وما لا أعرف؟
أقسم، بأنني، من دمنات، إن أردت
سأحمل لك شالا من الحرير!
ـ لا حاجة لي، يا ابن المراعي العليا،
لقطعة نقدية أو لشال من حرير !
ـ إذن، قولي لي ماذا تريدين
لأحظى بما تفكرين فيه
يا بنت القرية التحتانية الجميلة.
هل علي أن أعرض عليك الزواج؟
ـ يغالبني ضحكي، يا ابن المراعي العليا !
أنا لا أكترث بالمال والشال،
و لاحتى بالزواج ...

---

1 ماذا تريد ؟

أنتظر منك ما تنتظر مني

وحين يرتوي كلانا، سنكون بريئي الذمة تجاه بعضنا.

ما أريد ، يا مفتول العضلات ابن المراعي

ما أريد، هو مخبأ هذا الدغل

حيث ستكون فوق صدري النافر

لحظة سعادة أكثر حلاوة من العسل

بينما تضيع نظراتي في السماء !"

العرافة

أيها الناس ! أبدا، أبدا لا تمتحنوا القدر!
" الطالب " السوسي، العالم في القوى السحرية،
جلس في البيت ومعه الخير والشر ...
ليبعد الله عنا " طلبة " سوس[1] !
قال: " هذه الليلة ونحن نأكل " التونجفي[2] "
ماذا تقولون، ضيوفي، في استشراف المستقبل؟ "
أي بلاء ! لقد وافقتم، أيها الرجال المنومون مغناطيسيا !
وباسم الله، كل واحد منهما خلق كلمة في " التونجفين ".
استل الطالب " قرشا " والأب بلوطة،
الخماس[3] قطعة من فخار
والحفيد، قطعة فحم[4]، الحفيد ...
الغنى للطالب، الصحة للأب
العوز للشريك والموت للحفيد ...

والآن يمكنكم أن تبقوا راضين، أيها الناس !
فالعرافة تركت وراءها نفس الشر

هل بدونها، كانت ستعنّ للحفيد القوي السعيد،
فكرة الانخراط في گوم بو يحيى؟

---

1 اشتهر طلبة (فقهاء) سوس بقدرتهم على القيام بأعمال سحرية
2 أكلة تعد من حبوب الشعيرالمشوية والمخلوطة بالماء المملح أو اللبن
3 شريك في الأشغال الفلاحية يتقاضى الخمس من المحصول
4 تتطير بعض القبائل الأمازيغية من الفحم، لكن ليس بسبب لونه الأسود ..

لقد ذهب المسكين، أتعرفون ، أيها الناس !
بأن أولئك المنتمون " للسابع والأربعين " لم يعودوا ...
أصدقائي، اغلقوا أبوابكم في وجوه " طلبة " سوس،
وفي وجه محدثي المغامرات الطيبة الذين لهم العين الشريرة.
ولا تستشرفوا أبدا مستقبلكم ...

تگـــــات[1]

لعنة، لعنة قاسية
شاءت بأن أكون لكل الرجال.
ـ ليحفظكم الله، أيتها الفتيات... ـ
لقد سحرت. وربما هو المكتوب
مذ كنت في بطن أمي؟
وطالما أنا صغيرة ومرغوبة
فقدري هو أن أذهب من الحصيرة إلى حوض الاغتسال
وأن أقضي وقتي ممدة أو مقعيّة ...
يتظاهر الرجال بالطيبة لأستسلم لهم،
لكن لباقتهم تموت ما أن تنطفئ الرغبة ...
هؤلاء العشاق العابرون، يستعملونني
كما تستعمل طيلة النهار " تاغشولت "[2]
أو الحمار الذي يجر بلا توقف حبل البئر...
أكرههم، أكرههم ورغم ذلك أنا في حاجة إليهم
رغم القرف والتعب الذي تتسببه لي
ميزاباتهم " زوند تارانيم ـ ن ـ أوفوس[3] " ... حاشاكم !
أكرههم، أكرههم والمتعة التي يدينون لي بها
لا أريد أن أقتسمها معهم .
أريد أن أحرق جسدي المباع، المدنس بسم الرجال
لفرط ما صرت أمجه ...

---

1 تگـــــات : لعنة
2 تاغشولت : شكوة من جلد الماعز المحتفظ بشعره وهي التي تصنع فيها الزبدة وذلك برجها لمدة طويلة.
3 مثل سواعدهم ... أستسمحكم

والعين الشريرة لم تفتأ تتملكني
مثلما يمسك الطير الكاسر الحجل بين مخالبه.
إننا لا نهرب من حظ تعيس
كما لا تهرب حبة القمح من الرحى ...
أنا بنت محبة للرجال وسأبقى كذلك
مثلما أن البغلة المقيّدة لا يمكنها أن تتحرر.
أنا أيضا، مثل النساء اللواتي أغبطهن،
كنت أريد زوجا، رجلا واحدا، واحدا ...
رجلا كان سيؤمن لي الخبز واللباس
وكان سيكون لي أطفال، وضحكهم وبيت
بيتي أنا، إنها اللعنة ...
الكلمتان في الشفاه الواحدة منهما قريبة من الأخرى !!
هل علي أن أضحك أم علي أن أبكي، يا أخواتي؟
فأفراح الزواج والأمومة ليست لي
إلى أين ستقودني هذه اللعنة ؟
درداء، والعيون ذابلة، والوجه بشع،
أنذاك سأحطم مرآتي وأنا مرتاعة
يا رب، يا عظيم ! جنبني العيش
في الفقر، والألم والعار !
مثل العجوز إيزا التي تتسول من دار لدار
والتي تنام حيثما وجدت في أسمالها النتنة !
إيزا كانت جميلة وعشاقها لا يحصون .
والآن؟ هل سأصير مثلها ؟
مريريدة ! مريريدة ! هل ستكونين مثل
التي ينظر لها الناس بتقزز وشفقة ؟
ـ إذن، وبدون انتظار أطول، أنت أيها الموت مرحى !

الخاطبة

..." صباح الخير، بالصحة والسلامة !
جئت أقترح عليك زواجا طيبا، تارفوڤات !
لا يمكنك أن تبقي مطلقة، وأنت صغيرة وجميلة جدا
فالناس سينمّمون وسرعان ما يلوّثون سمعتك
حتى أن لا رجل يريدك في بيته.
ـ لالة كلثوم ! مرحبا بك رغم هذا الكلام الجميل !
ـ لولا مودّتي لك، تارفوڤات الصغيرة، هل كنت سأجيء إلى هنا؟
فزواجك الأخير لم يكن موفقا،
مثله في ذلك مثل الزيجتين اللتين سبقتاه،
لكن، منذئذ، أبديت لطفا كبيرا.
لم يفت الوقت بعد ... هناك رجل يطلبك.
آه ! تركت المغرف يسقط، ووجمت،
كم ولد النبأ لديك من بلبلة وأمل.
ـ لالة كلثوم! بحق والديك ... أي رجل؟
ـ زوج ليس له مثيل في الوادي،
قوي مثل ثور، والجراب مملوء.
إنك تعرفينه، لقد عاد مِؤخرا للبلد.
ـ إنه السرجان المختار، ويريد؟
ـ بالرجل، لنخبط الأرض! عاش المختار!
إنه هو، الذي عاد من الحرب، بفضل الله !
انتهت خدمته، عاد بميدالياته ومعاشه .
لقد أغدقت عليك عدة مزايا، عسل وحليب الدار،

إن نجحت في استمالته، عليك اغتنام الفرصة !
ثياب من صوف وحرير، لا شيء سينقصك.
ـ لا أكترث بثياب العيد،
لكن ما يهمني هو ألا أذهب أكد في الحقول.
ـ أتجهلين أن المختار يكتري عمالا؟
لكن قدرك ينبغي أن يكون مثله مثل باقي النساء
لكي تذهبي للعين، وتدخلي الحزمات والذرة.
والعجوز ستعينك في البحث عن الحطب في الغابة،
ستجدلين وستنسجين في الليالي الطوال .
و لا تنسي أبدا بركة الحب المطحون قبل الفجر
والذي يؤمن الهناء والسعادة في البيت.
ـ لالة كلثوم! النوم متأخر والإستيقاظ في الظلام !
ـ أتفضلين فندقا في مراكش
حيث يمكنك أن تتمددين نهارا وليلا.
إن كان هذا هو طريقك، سأنسحب بسرعة !
ـ توقفي لالة كلثوم، أنت تجللينني بالعار!
سآخذ نصيبي من عناء الدار والحقول.
ولكي لا أخفيك شيئا، أعترف بقلقي.
يقولون بأنه فظّ، وأنا خرجت من الضرب.
والقطة التي تبللت لا تنام تحت الميزاب !
ـ أولئك اللواتي يتشكين عليهن إظهار تورماتهن.
ـ يقال بأن أباه العجوز بخيل وقاس في العمل.
ـ هذه مزية بما أن الوارث سيكون زوجك !

ـ ...والأم الشريرة مثل عائشة تابوكاد[1] !
ـ اعثري لي على أمّ تتفاهم مع زوجة ابنها.
إن كانت الكنة تعرف كيف تهز الأرداف والخاصرة
فزوجها لن يخطئها أبدا والعجوز ستصمت !
ـ بعضهن يدعين بأنه يخلط بين "تيزي" و "تيززي"
ـ هراء وسم، إن طلقني في بضعة أيام
لن يكون عليك أن تظهري نعل صندلك !
ثم إن اعتراضاتك اَنتهت إلى جعل رأسي تغلي.
ولو كان الأمر كذلك، هل تعتبرين إذا لا شيء
سمعته كرجل شهم وميدالياته؟
وألف دورو مبلغ معاشه أربع مرات في السنة،
و لا شيء، البغل، والبقرات الثلاث، والشياه الخمس،
والحقول وشجرالجوز بهضبة تيموتا،
و لا شيء الدار والصوف والحبوب؟
أتستحقين حقا الخير الذي أحمله لك،
حين أراك تتظاهرين بأنك حذرة ومتطلبة !
و تموتين عطشا وترفضين كأس الماء !
لكن العشاق العابرين لا يخيفونك.
ـ كلماتك يصبن قلبي مثل رصاصات.
تريدين أن أقول نعم ... نعم ... دون تفكير،
فالسرجان بدون شك وعدك بمكافأة
وكل واحد يداه مفتوحتان تجاه وجهه.
ـ لو لم أكن أحبك، لنهضت للتو.

1 الغولة

من سيمنعني من حكي جهالات، تارفوڤات؟
والسرجان سيطلب مني بأن أجد له امرأة في مكان آخر،
ـ كلثومتي الطيبة، هل يطاوعك قلبك على إيذائي؟
ـ لقد رأيتك وأنت تولدين وأريد سعادتك تارفوڤات.
سأطمس كل ما عليه أن يجهله، سرجانك.
وسأجعله يحسب البلوط حبات جوز.
وسنكون هكذا سعداء نحن الثلاثة: هو الذي يضطرم حبا لك،
وأنت التي تبحثين عن ذكر، وهناء وأمان،
وأنا التي لن ترفض، وهي عابرة،
الحريرة المتبّلة جدا، وكأس شاي وقطعا نقدية صغيرة...
ـ لالة كلثوم ! تعالي معه، حين ينزل الليل،
تحت شجر الجوز، قرب الطاحونة، وسنتكلم.
ـ سآتي لك به كرضيع.
فقد نضج، أديريه فوق الجمر!
وفكري فيّ، حين ستصيرين زوجته
في هناء ورخاء، بفضل كلثوم؟
ـ ستأتين في غياب السرجان وسيكون لك
سيكون لك دوما ما أختلسه خفية،
اذهبي !في رعاية الله الذي سيجازيك على حسناتك!
... " وكفى والسلام "...

أحجار إيميـ ن ـ إيكيس

" روين سرين أوفلاح ! روين سرين إزدير[1]! ..."
...هذا ما وصلنا،
منذ الأزمنة الغابرة، وعبر العصور...
يقال، يقال بأنه في الزمن البعيد
أناس المقلاع والرمح
(كانوا ضخاما وأقوياء، أجداد آيت أوإلدي؟.)
يقال بأن عشيرتين من الوادي،
عشيرة أناس الأعالي، وعشيرة أناس الأماكن الواطئة،
كانا في حرب منذ ... (كيف لنا أن نعرف ؟)
اتفقا على إحلال السلم،
وحتى يتم إقرار الوئام،
تواعدوا على اللقاء في تجويف إيمي ـ ن ـ إيكيس،
في انعطافة وادي تساوت حيث ينزلق الظل
في منحدر خفيف نحو الجدول السريع،
وحيث جانب النور يرتفع من الصخور العليا.
أي عشيرة وصلت الأولى؟
عشيرة الأعالي؟ أو عشيرة الأماكن الواطئة ؟
نام أوائل الواصلين
وحين وصلت العشيرة الأخرى
عشيرة الأعالي؟ أو عشيرة الأماكن الواطئة ؟
عملت الأرواح الشريرة عملها:

1 " أناس الأعالي و أناس الأماكن الواطئة "

(ليحفظنا الله من شرورها !)
من تأخروا في المجيء قتلوا النائمين،
وتركوا أجسامهم، مثل جثث بنات آوى
من كانوا، عشيرة الأعالي؟
أو عشيرة الأماكن الواطئة ؟
لم يكن من شاهد سوى الصخور البيضاء
وجذور أشجار السنديان والصنوبر اليوم
لكن الله القادر على مسخ الكائنات،
ولكي يفضح القتلة وطرد " الجنّ "
حوّل كل ضحية إلى صخرة منتصبة ...
ومنذئذ نرى هذه الأحجار منتصبة
نراها متناثرة في منحدر إيمي ـ ن ـ إيكيس،
كل واحدة في المكان الذي توفي فيه رجل .
ومن يمكنه أن يحمرّ خجلا من الكمين الذي دبّر من طرف ذويه؟
هل كانوا أناس الأعالي؟ أم أناس الأماكن الواطئة ؟
من يمكنه أن يبكي ذويه الذين قتلوا وهم نيام؟
هل كانوا أناس الأعالي؟ أم أناس الأماكن الواطئة ؟
حدث الأمر في زمن بعيد لا أحد يتذكره .
الأحجار المنتصبة صامتة. إنهم أموات متحجّرون .
وهم الحرّاس المقدّسون لإيمي ـ ن ـ إيكيس .
وكل فصل ربيع، أناس الأعالي وأناس الأماكن الواطئة
سليلو أناس المقلاع والرمح،
رجال ونساء وأطفال لابسين أزياء العيد

يحملون للأحجار المنتصبة " الأوركيمن[1] " التقليدي
لكي تتضاعف و تحمي قطعانهم،
أناس الأعالي، وأناس الأماكن الواطئة ،
ولتهدئة أرواح الأسلاف،
عشيرة الأعالي، وعشيرة الأماكن الواطئة ...

1 حريرة تعدّ من الشعير والذرة والعدس والحمص

النميمة

اللعنة على اللسان وسمّه !

لا أحد كان هناك، ورغم ذلك يقال ...

يقال بأن العجوز أمغار[1] تسبّب في حمل راعيته.

يقال بأن هذا كان يسرق في شبابه.

يقال بأن هذا سمّم صهره

وأن المقدّم خنق عشيقته ...

يقال بأن با أسكوم يأكل لحم الخنزير

وأن اليهودي إيشو يزيف النقود ...

يقال بأن القائد وزوجة الحاكم ...

يقال بأن القائد، يوم عيد الرؤوس[2] ...

لا أحد كان هناك، ورغم ذلك يقال ...

فالأذن ميالة للنميمة

اللعنة على اللسان وسمه !

---

1 أمغار : شيخ القبيلة

2 عيد الأضحى

باب تاگانت[1]

فرض حارس غابة آيت تامليل غرامة،
غرامة ستمائة دورو، دون الحديث عن شهر سجن،
فرضها على أناس من تاسلي، ولماذا؟ أتصدقونه؟
من أجل حوالي مائة عمود صنوبر وسنديان،
حتى لا تكون دورنا بدون سطوح ...
لا فائدة من تليين قلبه أو تعقيله.
فهو لا يفهم أمورنا.
يجيب دوما : " الظهير[2]! الظهير !"
ومن وضعوا الظهير لم يولدوا في غاباتنا !
يا سيد الغابة ! لماذا تفرض علينا غرامات،
غرامات وسجن في مكتب إمليل،
تاساوت الذي جرف أشجار صفصاف أنفيگ[3]؟
أوقع ضررا أكثر من مائة عمود !
وينبغي أن تكتب في مفكرتك إسم
إسم الصاعقة التي إبان الرّعد،
هشّمت صنوبر وجوز إيبورودين !
ألا يمكنك أن تحجز فأس نار السماء؟
ماذا تنتظر لترسل إلى سجن إمليل
تلك[4] التي أطلقت في هذه الشتاء العاصفة.

1 حرفيّا : سيد الغابة، حارس الغابة
2 قانون يصدره الملك
3 إشارة إلى سيل جرف كل شيء في وادي تاساوت
4 هي بدون شك الغولة تابوكاد

لقد حطّم السّيل آلاف المشاغل.
ومن أجل مائة عمود، هبة من الطبيعة الكريمة،
تعطي لنفسك حقّ إنكار بركة الله !
كما لو أن الغابة ملك للمخزن
وليست ملك منذ أزمنة غابرة لأهل تاسيلي!
إننا نذعن لصرامة القانون،
قانون بلا معنى، قانون يخرق عاداتنا.
لكن أيمكن أن نقدم اعتراضا، باب تاگانت !
أنت باب تاگانت، وبوتاگانت[1] ولا تعرف الله ؟

1 باب تاگانت : حارس الغابة، وبوتاگانت : الخنزير

تامكساوت. مانزا كميم[1] ...؟

حين ذهبت، قال لها، سيدها:

" أيتها الراعية، احذري أيتها الراعية، من يقول لك :

" أيتها الراعية، كيف حالك، أيتها الراعية ؟

ـ تهامو، الراعية ، نزلت من العزيب، هناك في الأعالي،

حيث حملت لهم مؤونة الأسبوع، الدقيق والملح،

والسكر والشاي لرعاة العزيب، هناك في الأعالي ...

نزلت: " التگيويت[2] " فوق الظهر، والحبل يشد بقوّة الصّدر.

كلّ باطن قدميها من المشي، فهي تسير منذ النجمة الأخيرة.

وها هي، ها هي، تعود في منتصف النهار.

وحر الظهيرة يدعوها للبحث عن البرودة والراحة.

أغمضت عينيها ونامت في ظل سنديانة،

وقربة الماعز مليئة بالسمن قربها.

وهكذا أخذها العطار[3] في نومها.

يمكنها أن تصيح، تهامو الراعية، يمكنها أن تصيح.

وحدها قربة الماعز يمكنها أن تشهد!

" لماذا تبكين أيتها الراعية ؟ لم آخذ منك إلا هذا ...

عودي إلى القرية، بعينين ناشفتين، ولا تقولي شيئا خصوصا ...

عودي بالسمن الطازج الذي ينتظره أسيادك ".

التحق العطار المرتوي برفيقه.

" رأيت بنتا جميلة وقربة سمن طازج.

---

1 أيتها الراعية، كيف حالك ؟

2 قربة من جلد الماعز لحمل السمن

3 تاجر متنقل

السمن، لدي ! ولكن لا بنت لدي !
أخذت البنت وتركت قربة السمن ..."
قال العطار الآخر: " من هنا أيتها الراعية ؟ "
لحق العطار الآخر بالراعية وهي تتألم
وكان عليها أن تقبل مرة أخرى، الراعية المتألمة ...
كانت تبكي سوء حظها، العار لهما !
وتبكي أكثر سمن أسيادها
وهي تفكر في الصراخ والضرب الذي ينتظرها.
لقي العطار صاحبه الأول، الكافران !
" رأيت البنت الجميلة، وليست لي بنت في الدار
أخذت القربة، وعاشرت البنت مرتين...
أيتها الراعية ! كيف أنت؟ " أر- إيمال ! أر- إيمال "[1]

1 " إلى السنة القادمة ! " تعبير استخدم هنا بدلالة ساخرة

سخرة اللفت

قال عسو العجوز من آيت إيگلوان،
المقدم: " يا نساء وبنات فخدتنا،
وأكثركن نشاطا، أترفضن لي " التويزة[1] "
في حقلي بعزيب تيكيدا، هناك فوق ؟
ستقتلعون اللفت الأبيض بحقلي،
اللفت الذي سيجفف لهذا الشتاء[2] ...
وذهب، ناسيا عون الله !
لا يمكن، رفض السخرة للمقدم،
ولا لأي عائلة من القرية، لكنه يتجاوز الحد،
يتجاوز الحد، المقدم : سخرة للحطب، للذرة،
للجوز، لاقتلاع العشب من الشعير والقمح ...
سخرة للرجال، والنساء والبغال !
فليكن، ستسير النساء والبنات النشطات إلى الحقل،
إلى حقل العزيب، عبر المسرب الصاعد،
صعود، صعود وبعد الصعود، صعود،
وينبغي، والظهر مثني، والعجز ممدود،
اقتلاع اللفت الذي سيجفف للشتاء ...
إنها مادية، العفريتة، والماكرة، ذات الذهن الفطن،
التي تقود رفيقاتها في المسرب الوعر .

1 السخرة التي يفرضها القائد وأحيانا تكون اختيارية بين أهل القبيلة حيث يساعد بعضهم البعض

2 يدخر الأمازيغيون بعض المواد الغدائية لفصل الشتاء القاسي

حين يصلن إلى الحقل، هناك في الأعالي، في الأعالي،
ينزعن نعالهن ويفكن أحزمتهن.
قالت مادية: " لننام تحت شجر الجوز
لننم، لننم أخواتي حتى " تيزوارن[1] "
سرعان ما سيكون الظهرمثني، والعجز ممدود،
نحن اللاتي جئن هنا بدون السلام المعمول به
الذي نسيه مقدمنا الكافر! "
ناموا، ناموا على جنوبهن
النعل تحت الرأس، والظهر مثني، والعجز ممدود
واستيقظن، كان " تيزوارن " قد مر منذ مدة طويلة !
بسرعة، بسرعة، الظهر مثني والعجز ممدود !
ها هو المقدم ببغليه،
و" إتليسن[2] " لملئها والحبال لشدها ...
الأمر مبكر جدا، ولا شيء معدّ، ينبغي الإسراع .
لقد تأخر الوقت، والظل تمدد، وماذا ينفع الإسراع؟
تلطم النساء والبنات خدودهن.
بسرعة، بسرعة، الظهر مثني، والعجز ممدود
العجوز عسّو ليس سعيدا، " با ـ تيميوين[3]"،
جعلته المفاجأة يتمتم: " زا...كا...زا...كا..."
آنذاك قالت مادية للنساء الوجلات:
" لا تخفن من شيء، أخواتي، قلن مثلي".

---

1 تيزوارن : هو وقت الظهيرة
2 جمع تليس وهو جراب كبير يصنع من صوف الخراف أو الماعز
3 حاجباه يفصحان عن دهشته وغضبه

من غضبه اختنق العجوز عسو: " ماخ ؟ ماخ[1]؟"
رفعت رأسها، مادية: " ماخ؟ " مقدّمنا،
ما بك؟ لا تلومن إلا نفسك:
لقد أرسلتنا بلا حياء، وبدون أن تقول الكلام
الذي وحده يؤدي إلى مباركة جني الغلة:
" يا رب! إننا نسألك ! أن تبارك أعمالنا !"
لهذا السبب لم يتقبل حقلك المجانب للمسرب
النساء وسخرتهن،
سخرتهن، الظهر مثني، والعجز ممدود.
فمن ينسى تحويل الساقية
لا يندهش من رؤية مرجه جافًا !
وأنت أيها، المقدّم، لا تكترث بنا إلا قليلا.
فالبغالون مفتولو العضلات الذاهبون إلى سوق دمنات
طردونا من الحقل، طيلة النهار.
وكيف تريد أن يكون الأمر على نحو آخر
مع نساء الظهر محني، والعجز ممدود
عارضات أنفسهن هكذا كمهرات للخيل ...
آنذاك بدأت النساء والبنات يلطمن خدودهن،
مدّعيات الخوف والخجل، الماكرات:
" قالوا: " النساء مثل الزهر لكل
واحد الحق في تنشقه ."
وقالوا: " الزهور العطرة تترك نفسها تجرس،
والبغالون الذين يمرون سيكونون نحلكن"

1 " ماخ " : لماذا ؟

وقالوا: اغرسن اللفت، وستحصلن على البذرة ..."
ولكي نفلت منهم، هربنا للغابة
ونحن نصيح : " لا نريد غرس اللفت
ومن هذا اللفت، لا واحدة ترغب في البذرة !..."
أيها المقدم، حقل لفتك، صالح للعجائز،
العجائز ذوات الأفخاذ الذابلة والأرداف الضامرة.
إنه ليس لنا، حقل لفتك
حقلك الذي جئنا له دون ذكر الله.
إنه ليس لنا نحن النساء، والبنات الشابات،
ليس لنا الظهر مثني، والعجز ممدود ..."

للسكوري و للفأر ...

...كم قلت لكنّ يا ربات البيوت،
" للسكوري وللفأر، لا تفتحن بيوتكن"
لقد جاء، با علال السكوري، لقد جاء
مع ابنته، بنت با علال، السكوري...
ومنذئذ، لا يوم بدون تحيته الصباحية،
وبدون ثرثرته عند الظهيرة وضحكه في الليل !
لقد جاءت تطلب نارا، وفي الحق
لقد جاءت حاملة إسفنجا، وفي الحق،
جاءت تقترض غربالا، وفي الحق،
وأيضا المهراس، بدون مدقه، وفي الحق ...
كانت تتباطأ في الدرج المظلم، وفي الحق،
حيث كان يتواجد صدفة سيّد الدار، وفي الحق،
لقد جاءت بالمهراس، وفي الحق،
لقد وجدت السيد والمدق في الدرج.
أتسمعونني جيدا، المدق، المدق ...
لقد عادت كل يوم، ابنة السكوري،
حتى الليلة التي بقيت فيها، بنت السكوري.
لقد بقيت وهي الآن
الزوجة الشابة المدللة لرب البيت !
... ألم أقل لكن، يا ربات البيوت :
" للسكوري وللفأر لا تفتحن أبواب بيوتكن ! "

مــــــــوحـــــــــا

كيف تريدون أن أنام هذه الليلة ؟ ...
إنه هنا، موحا من نايت بو إيزگاران،
موحا، إنه هنا، موارى التراب، الآن،
هو الذي وطيلة أيامه الأخيرة في الحياة
كان يدفئ في الشمس عظامه البالية المتعبة،
طيلة فصل الشتاء، مقابلا الشروق أو المغيب ...
إنه هنا حيث سنسير كلنا، آجلا أو عاجلا،
بحسب مشيئة الله الرحمن الرحيم ...
التراب ولحمه صاروا شيئا واحدا، الآن.
ومكانه الفارغ من الآن فصاعدا سيذكرني دوما
بأنه كان هنا، حيّا، الظهر مستند على الجدار،
بـ " إيكرزيه[1]" المصنوعة من صوف أسمر فوق رأسه.
الذكرى تطيل حياة الأموات
حتى حين الوقت الذي ينزل فيه غمام النسيان...
كان يذهب لقضاء أيام عند بنته،
في وابزازا، حيث يخيف النمر الناس.
فنشعر كأن شيئا يعوزنا.
وحين يعود، كنا نصيح : " موحا عاد ! "
ونحس فجأة بالابتهاج .
ينبغي التعود على غيابه الأبدي
كما تعودنا على رؤيته كل يوم.

1 قبعته

لكن سأسمع دوما موحا الذي يقول لي :
" مريريدة ! عليك بركة الله !
كم أنت جميلة ! تعالي لتجلسي بالقرب مني.
فحضورك يدفئني مثله مثل الشمس !"
لا يمكن أن أصدق بأنه لن يعود أبدا ...
إنه هناك، تحت ثلاثة أذرع ثقيلة لـ " إيدكي "،
" يا ربي ! " كم سيكون باردا تحت ! ...
وبمجرد التفكير في ذلك، ينتابني الشعور بالبرد ...
" يا ربي ! " موحا، إنه تحت، موحا ...
في الليل، في البرد والشتاء التي تغرقه ...
محبة في الله قولوا لي، هذا ليس حقيقيا !
كيف تريدون أن أنام، هذه الليلة ؟ ...

المهجورة

" أتركيني أبكي، محبوبي راح.

ـ لماذا تتحسرين، مثل فتاة صغيرة؟

آخرون كثر مثله في مسگونان

شهر عمل في الغابة يمر بسرعة .

" أجفاني كلت وقلبي منقبض.

ـ لماذا تتحسرين بدون سبب ولا تعقل؟

آخرون كثر ذهبوا لدرعة

لجلب الحناء والتمر.

" لم أعد أعرف لا الجوع، ولا العطش، ولا النوم

ـ لماذا تتحسرين على غياب قصير جدا؟

سيعود غدا من سوق دمنات ببغله محملا وبهدية لك.

" يتآكلني الحزن مثلما يتآكل الصدأ بالحديد.

ـ لماذا تتحسرين، ربما بسبب الغيرة؟

أتركي له الوقت ليذهب إلى مراكش

ليبيع الجوز وقشور الجوز.

" الفراق مرير أكثر من الموت.

ـ لماذا تعيشين في حسرة الهم و الخوف؟

وحتى ولو حبسه القايد في السجن،

سيكون بين يديك قبل اكتمال البدر.

" مع كامل الأسف، محبوبي ليس في الغابة،

ولا في " القبلة "، ولا في السوق، ولا في السجن.

إنه ذهب جنديا لخمس سنوات ...

لقد قال: " الحياة قاسية في جبالنا ".

... وحياتي، من الآن فصاعدا، ستكون أكثر قساوة ..."

أقيد إيخف[1] !

..." أقيد إيخف ! " السماء، ومهما كانت سوداء،
فهي لا تمطر بالقوة التي ترعد فيها !
بوجمعة، ابن منصور من آيت إيكّو،
بوجمعة " مقدم " قريتنا
توقف عن التشكي إزاء هذه الورقة ...
فالقلق حفر خديك،
وفقدت النوم والشهية
بسبب المدني الساعي
الذي أعطاك استدعاء القايد.
في هذه الحالة، كيف لك أن تذهب لدار جاكير[2]؟
فغضب القايد يكون في راحة اليد،
وتتصوره أنت يفيض من الطاسة[3] !
دع مدّ الكلام القاسي يمرّ
كما ننتظر مرور السيل .
يخفف الصمت الغضب
كما يرهق الصفصاف الريح .
الجواب يستدعي الجواب
كما يشعل مجددا النفخ الجمرة .
ذهنك مشغول بالخوف والعقاب .
فهل عصيت القايد كثيرا إلى هذا الحد؟

1 حرفيا : تعني شد رأسك
2 مكان تواجد القائد وهي بمنطقة فطواكة
3 إناء من نحاس يقدم لغسل اليد والتمضمض

أتعرف على الأقل ما يؤاخذك عليه؟
لم يأتي الماء بعد
وأنت ترفع من الآن الجلباب !
صدقني السماء ومهما كانت سوداء،
فهي لا تمطر بالقوة التي ترعد فيها ...

أنشودة النساجة

در، در مغزلي،
مغزلي المصنوع من خشب ناعم ومصقول،
در، در بسرعة أكثر،
در بسرعة حتى أنك تفلت من عيني ...
در! ولن يكون عليك أن تبطئ
فالأصابع الماهرة ستغذيك
بحسب دورانك
ولن تتطلب منك شكرانا ...
در، در مغزلي الطويل!
أجدل الخيط الأبيض الحريري
الصوف الناعم الذي يمتاز بحبكته ...
در، در مغزلي الصغير!
أجدل الخيط الأبيض الصلب،
الصوف الخشن الذي تتطلبه الخلالة ...
الجزة البيضاء، انجدلي
من أجل، خيرأهل الدار!
لا تتقطعوا، أيتها الخيوط البيضاء الطويلة،
لا الآن ولا بعد ذلك في المنسج
حين تمر بنتي ثلاث مرات تحت " أزيتا "

تسللي، تسللي بسرعة أكثر بين أصابعي،

أيها الصوف الأبيض الذي يثقل مغزلي !

بالنسبة للدار، أثمة ما هو أثمن

من الصوف والحبوب، من الحبوب والصوف؟

أيها الصوف، أبيضا كنت أو داكنا، لتحل بركتك علينا

بعون الله الرحمن الرحيم !

الزوجتـــــــــان

"... ليحفظنا الله من الغيرة والعار!

لالة خيرة المسكينة ! أنا أشفق عليك.

تزوجت رجلا عجوزا، عجوزا جدا،

بلا حب، لا لشيء إلا لما يملكه ...

ـ ليحفظنا الله من الغيرة والعار!

لالة إيزا المسكينة ! أنا أشفق عليك

أنت ورجلك الشاب المحبين لبؤسكما ...

ـ لزوجي الشاب ما لم يعد لعجوزك،

والغيرة والحسرة تشحدان لسانك.

ـ في بيتنا يعم الرخاء :

الحبوب، القطيع، الصوف، النقود،

ويمكنني أن أجد في مكان آخر ما يعوزني

ولكن الشعور الرغيد بالحياة إيزا، أين ستجدينه ؟

السي علي من إيباقلوين

حمو ـ ما ـ إيسمن ـ إيك[1] ...

لماذا يسمى حمو ـ ما ـ إيسمن ـ إيك ؟
لست أنا مريريدة، من يمكنها أن تقول لكم
ولا أعتقد أن أحدا سيعرف السبب

تلك الدار الخربة والصامتة
والتي يجعلها الفراغ أكبر مما هي عليه،
العناكب والفئران.
ولم يعد لحمو ـ ما ـ إيسمن ـ إيك إلا أن يرحل ...
مسكن بئيس بضيوف حزانى وبؤساء،
لم يعرف أبدا لا رخاء ولا فرحا .
سوى الفقر والأمراض والمآتم
والعين الشريرة طبعا، العين الشريرة،
تكالبت على العائلة، العين الشريرة !
كم من تابوت عبر العتبة؟
رجال، ونساء، وأطفال سقطوا،
سقطوا الواحد بعد الآخر كما يسقط
البلوط حتى قبل أن ينضج ...
الله هو وحده الحاكم ومرحبا بمشيئته.
وأي كافر يتجرأ الاعتراض أو التحسر؟
لم يعد لحمو ـ ما ـ إيسمن ـ إيك إلا الرحيل.

1 حرفيا : حمو ما إسمك ؟

إنه الناجي الوحيد، حمو۔ ما ۔ إيسمن ۔ ايك
وحده في داره الفارغة جدا، الرنانة جدا،
بحيطانها المتداعية وسطوحها التي تسرب الماء .
يشعر حمو بأنه لم يعد له مكان هنا.
فالجيران لا يمسكون بالجار
الذي ومنذ مدة لم يعد يذهب للطاحونة،
الجار الذي تغم رؤيته وتزعج
الجار ضحية القدر، الذي يتزايد من يتحاشونه
بقدر ما يتضاعف عوزه المحزن.
الجار المسكين، الذي يحمل التعاسة معه،
والذي حتى ظله يجرّ معه التعاسة...

لا، في الحقيقة، فهو لا يحملها معه
الجار الذي عليه أن يفهم بأن الأفضل له هو أن يرحل
يرحل للسهل، للبعيد، وأخيرا أن لا يعود أبدا.
(ليحفظنا الله من الشرور المرتبطة بخطاه !)

وكان هو يعد نفسه بأن لا يظهر مجددا أبدا
في داره الفارغة جدا والرنانة جدا
أو هائما على وجهه يندب الأرواح المختفية،
داره التي تنهار شيئا فشيئا كل فصل شتاء
و التي لا أحد يريد أن يشتريها أو السكن فيها ...

وهكذا وضع حمو براد الشاي في قب جلبابه.

وابتعد بلا صخب ولا وداع لجيرانه،
لجيرانه الفرحين بنجاتهم من العدوى ...
استدار نحو دار الأجداد،
الفارغة جدا، التي يتردد فيها الصدى بقوة، دار البؤس،
بؤس يؤججه ألم هذا الذهاب
الذي يحرمه من ماضيه ومن كل أمل،
كما لو أنه فقد عقله وجسده،
وفقد حتى روحه وحتى اسمه ...
عاد على عقبيه حمو- ما - إيسمن - إيك
وسد الفجوات، في كل طبقة من الدار،
ووضع حجرا في النوافذ التي لا حجر فيها.
وأغلق الباب القديم، للمرة الأخيرة،
ومرر الساروت الخشبي تحت العتبة المهترئة .
محتبسي الأنفاس، يتآكلهم فضول قاس
كان الجيران يراقبون حمو- ما- إيسمن - إيك
... أيها الناس ! ألم تسبلوا أبدا رموش عيني ميت؟ ...

لماذا يسمى حمو- ما- إيسمن - إيك؟
لست أنا، مريريدة، من يمكنها أن تقول لكم
وأعتقد بأن لا أحد سيعرف السبب أبدا.

حصاة ملساء

لا شيء له أهمية كبيرة في الحياة،
يقول الحكماء، وسيّئوا الحظ، والراضون بقدرهم .
ويؤكد آخرون بأن الحياة كذلك
في حوادثها الأكثر صغرا والأكثر كبرا.
وهذه الحكاية، يا جاري، ـ ليلهمك الله ! ـ
ستقبلها كما سمعتها ...

كان هناك حصاة ملساء مسطحة وصقيلة، بجانب السيل.
وكانت هناك زوجة شابة جاءت لغسل رجليها.
أبصرت الحصاة الجميلة، وحكت بها عقبيها
وحملتها لاستعمالها كل يوم.
وحرصت على وسمها بعلامة.
وضعتها في نافذتها، أسقطتها دجاجة.
فأخذها الحم ليبعد بها كلب.
وليلعب، أخذها الكلب في شدقه.
استعملها تاجر في وزن الصوف.
والتقطها راع ليسقط بها الجوز.
وهو يسقط ضربت الحصاة طفلا.
أخذ والد الطفل الراعي إلى القايد،
دون أن ينسى الحصاة، كان مزاج القايد سيئا،
لذا حكم بشهر سجنا على المشتكي المذهول.
وحتى يتذكر هذا الظلم، احتفظ الرجل بالحصاة،

وحين فك أسره أخيرا، رماها تجاه غربان
كانت تنهب حقل ذرة.
تدحرجت الحصاة حتى قدمي حارسة بقر
فصاحت : " آه " تمامات " الجميلة، وهي تشهره في يدها ! "
غيرأن العجوز كانت حماة الزوجة الشابة
التي اندهشت وهي تتعرف على حكاكتها.
وكانت ستندهش أكثر لو عرفت كيف عادت إليها !
... لا ينبغي للأشياء العجيبة في هذه الدنيا أن تدهشنا
فكل شيء في هذه الدنيا بمشيئة الله .

طيبيبتة[1]

طيبيبتة توشك أن تموت من البرد. قالت، طيبيبتة :
" أيها الثلج ! أنا أطلب عونك !
ـ أنا ! ماذا أستطيع القيام به ضد الشمس،
فهي تذيبني، أطلبي عونها !
" أيتها الشمس ! أنا أطلب عونك !
ـ أنا ! ماذا أستطيع القيام به ضد الغمام؟
فهو يحجبني، أطلبي عونه !
" يا غمام ! أنا أطلب عونك !
ـ أنا، ماذا أستطيع القيام به ضد الريح؟
إنه يطردني، أطلبي عونه !
" يا ريح، أنا أطلب عونك !
ـ أنا ! ماذا أستطيع القيام به ضد جدار؟
فهو يوقفني، أطلبي عونه !
" يا جدار! أنا أطلب عونك !
ـ أنا، ماذا أستطيع القيام به ضد الفئران؟
فهم يسقطونني، أطلبي عونهم !
" يا فئران، أطلب عونكم !
ـ نحن ! الكلب هو القوي.
إنه يفترسنا، اطلبي عونه !
" يا كلب، أطلب عونك !
ـ أنا ! ماذا أستطيع القيام به ضد العصا؟

1 طائر الدرسة المنزلي

أعرف عنها بعض الشيء، أطلبي عونها !
"أيتها العصا، أنا أطلب عونك !
ـ أنا ! ماذا أستطيع القيام به ضد النار؟
فهي تحيلني رمادا، أطلبي عونها
" يا نار! أنا أطلب عونك !
ـ أنا ! أتعتقدين أنني قوية، والماء؟
إنه يطفئني، أطلبي عونه !
" يا ماء ! أنا أطلب عونك !
ـ أنا، ماذا أستطيع القيام به ضد القلة؟
إنها تأسرني، اطلبي عونها !
" يا قلة ! أنا أطلب عونك !
ـ أنا لست قوية هل تعرفين معلم الفخار؟
إنه يشكلني ويضعني في الفرن ...
" يا معلم الفخار! أنا أطلب عونك !
ـ أنا ! اطلبي ذلك بالأحرى من الثلج!
إنه يمنعني من العمل!
" يا معلم الفخار! إنك تحيلني على الثلج.
والثلج أحالني على الشمس ...
وبماذا سينفعني تكرار دعائي؟ "
آنذاك قال معلم الفخار لطبيبته :
" الموت وحده هو القوي .
وسيأتي ليأخذني حين يحين الأجل،
كما أتى ليأخذك، يا طبيبتة !"

المسامير

... مسماران، مسماران فقط،
كل واحد تحت عقب نعل ...

" أمي، أحرسي الكتاب،
وإن خرج زوجي" الطالب "،
دبري أمرك لكي تستبقيه
ولتأتي فاطمة لإخباري ."

" أيتها القوبع الخفيفة بصياحك
تزعجينني، ماذا تريدين؟ "
ـ تيمغارين ... تيمغضارين[1] ...
زوجتك، أيها الطالب، ليست استثناء.

" إذن انصحيني ، أيتها القوبع،
تعرفين أن العجوز يقظة،
وزوجتي، تأخذ علما مسبقا،
ولها جواب جاهز دوما ..."

ـ بمسمار حذاء جندي
تحت عقب النعل
ستكتشف، أيها الطالب !
دار عشيقها.

1 مثل أمازيغي : " نساء ... غدارات "

" أيتها المرأة غير الوفية، اسمعيني،
أنا، " كاراك ـ كاراك "، أبو زريق،
أقول لك اذهبي بقدم حافية، قدم حافية.
فالصاعقة لا تنذر الشجرة التي تختارها !"

" عن ماذا تبحث، أيها الطالب من قريتنا،
بعد زخة نيسان المباركة هذه "
ـ مسمار، أصدقائي، ربما مسماران
بعد زخة " نيسان[1] " المباركة هذه ...

" لماذا تتقافزين أمامي
أيتها القوبع، الرسولة ؟ "
ـ لكي أريك، أيها الطالب، آثار
المسامير في الأرض البليلة

التي ستقودك إلى عتبة العشيق
أترى أثر مسمار اليمين ؟
أترى أثر مسمار الشمال ؟
ها أنت قد علمت؟ ادخل واصمت !

" أيتها الزوجة غير الوفية ، أنا أبو زريق،
لقد نبهتك للخطر.

1 نيسان هي الفترة الممتدة من آخر أبريل إلى آخر ماي ومطرها مفيد جدا للمزروعات

ولم تريدي أن تسيري بقدمين حافيتين !
اللعنة عليك " كاراك ـ كاراك " يقول لك وداعا ..."

" جار كتابي، أرجوك،
احرس للحظة الأطفال.
فألواحهم معدة .
وأنت، أيتها القوبع، ماذا تقولين لي ؟

ـ أيها الطالب بسرعة إلى دار العشيق
من الجنان فالعجوز لا يمكنها أن تراك
وبدون أن تضع الأذن على الباب
ستتعرف على صوت زينة،

وأيضا على صوت علي، الغاوي .
ادفع الباب، فهي ليست مسدودة .
وبعد أن ترى بعينيك،
لا يمكن للرجل إلا أن يستل خنجره !

" مع الأسف، أنا رجل ضائع.
لقد نحرت عليّ وبقرت بطن
زينة، زوجتي المذنبة
التي نحوها قادتني المسامير !

" أنا " واك ـ كواك "، البومة الأم.
اسمعوا ! اسمعوا، ما أقول لكم
كيف أن الطالب فتح عنق عليّ
والبطن غير الطاهر والأبيض لزينة !"

... مسماران، مسماران فقط،
كل واحد تحت عقب نعل ...

غاسلات الصوف

إن كانت أصابعنا المسكينة دامية،
اسألوا عن السبب الأشواك
التي جمعتها الشياه طيلة الصيف في العزيب.
هذا هو قدرنا نحن، غاسلات الصوف.
أين هي، تلك التي ستتجرأ على الشكوى؟

إن كانت أيدينا محمرة من البرد،
اسألوا عن السبب الماء الصاقع
الذي ينزل من العيون التي ما يزال فيها الثلج.
هذا هو قدرنا نحن، غاسلات الصوف.
أين هي، تلك التي ستتجرأ على الشكوى؟

إن كانت لنا أكتاف وظهور محطمة،
اسألوا عن السبب الجزات الثقيلة
التي تبقينا محنيات، والأرجل في الماء.
هذا هو قدرنا نحن، غاسلات الصوف.
أين هي، تلك التي ستتجرأ على الشكوى؟

أيها الصوف الذي يجمع بين القوة والرقة،
والذي يملك الحماية والرخاء،
تعبنا، نهديه لك بفرح.
فما قيمة تعبنا بجانب خيراتك التي لا تقدر؟
أيها الصوف، لتحل بنا بركتك المليئة بالفضائل !

جدة القاتل

" ليشمل الله بعنايته الأبرياء !
صغيري باسو، ابن ابني ، ماذا يقول الناس ؟
بأنك في السجن،أنت، ابننا الجدير بسلالتنا ...
الجرب ، القرع ، اليرقان ، الجذام
لأولئك الذين يغتابون بألسنتهم السامة !
ليجنبنا الله مكانا بينهم أبد الآبدين
لكن المقدم سيفقد مكانته في أعيننا
إن كان يكذب، هو، وقد أكد أن باسو ...
في السجن، في السجن لأنه ذبح زينب
زينب، العاهرة التي تخلب لب الفتيان،
الفتيان والرجال والمتزوجين.
لقد استقبلت من العشاق مثلما رن المهراس تحت
ضربات المدق ، المهراس العتيق
المصنوع من شجر الجوز من طرف أب جدي...
كانت تجنن الرجال بشعرها الناعم
الذي تسدله على كتفيها وصدرها المكور .
كانت تقضي نصف وقتها معتنية برأسها
بـ " ألزاز[1]" الذي يقوي الشعر،
والنصف الآخر تقضيه وهي تنتف وتصقل
يديها، وساقيها، وفخذيها وبطنها.

1 تصنع الأمازيغيات مقويا للشعر من أوراق هذه الشجيرة المنتشرة في الأطلس الكبير

ولكي تصير سمينة تأكل حبات " تاريالا[1] "
وحبات "الحلبة " المشتراة من العطار
لكن ما فائدة كل هذا إن كان الموت قد أخذها !
لا، ليس من أجل زينب ألحق صغيري باسو
هذا العار على آيت إيزرگان .
اسألوا كبار السن وأهل الوادي،
من صنوبر سيدي مسكور إلى المجازين .
هل تشكت قريتنا من آيت إيزرگان؟
لأهل النخوة والكلمة الثابتة لأهل الخير؟
هل أقرضوا بالربا، هنا أو هناك؟
هل غشوا في السمن، العسل، القشور؟
هل قيل لكم: " بأن أبوابهم مغلقة في وجوه التعساء ."
أو قيل: " بأنهم لم ينحروا في عيد ـ ن ـ تافسكا"
أو قيل:" لم يكونوا في " معروف " لالة تازرزمت[2] ."
احذرن، أمهات البوم النمامات بلا ندم !
ليسلط عليكن الجدري والطاعون !
فما أن ترون آيت ايزرگان غاضبين
واليد اليمنى موضوعة في الخصرالأيسر[3]،
حتى تمتنن من الخوف، أيتها الحقيرات السيئات.
أنسيتن بأن آيت إيزراگان على أكتافهم
" تراميت[4] " التي تجعل الرصاصة سديدة،

---

1 نبتة تطحن حباتها وجذورها وتستعمل للحصول على السمنة مثلها مثل الحلبة
2 المعروف طعام يتناول جماعيا في ضريح تسبقه وتختمه دعوات للولي الصالح حتى ينشر بركته.
لالة تازرزمت هي قمة شاهقة ومقدسة تشرف على مگداز .
3 لأن الخنجر يوضع في الجانب الأيسر
4 سيدي علي أوناصر حامي الصيادين الذين كانوا يشمون كتفهم بوشم خاص حتى يسددوا بدقة.

" تاراميت " سيدي علي، ليبارك الله اسمه !
...لكن قل لي، أيها المقدم، أنت الصديق لعائلتنا،
أتكون الحقيقة عند هؤلاء النسوة اللواتي توشوشن
وهن تنظرن من خلال أصابعهن إلى بابنا؟
فالتبن الرقيق لا يتطاير إلا حين نذروه في الريح
والشمعة لا ترشح إلا حين تشعل...
توقف ! أيها المقدم ! وأنت تقوم بحركة نتف اللحية.
فاللعنة حلت إذن بآيت إيزرگان !
ألا يكون باسو ضحية العين الشريرة
أو حصد بدون "تارزا[1]" هذا الصيف ...
زينب الماكرة أسرته بسحرها.
وشربته زهر الفوة[2]،
وأكّلته مخّ الضّبع[3]
ولم يعد يحمل في عنقه حناء الأولياء الصالحين
الحناء التي عقدتها في صرة الصوف الأحمر.
أرجوك، أيها المقدم، صديق عائلتنا القديم،
أهبك عيني لأسمعك تقول :
ـ " لالة طوجوت ! ابن ابنك من آيت إيزراگان
لم يلوث يده بدم زينب ! "
أهبك عيني لأسمعك تقول :
كيف تريدني أن أصدق بأن باسو ...
لا، فباسو سيبقى الابن الجدير بسلالتنا !

---

1 قبعة كبيرة تصنع من الدوم
2 مقوى جنسي معروف عند الأمازيغ
3 من أكل مخ الضبع يصبح طيعا في يد عشيقته.

فلا دود في الملح، ولا يتسرب الماء من حائك الصوف،
والذهب لا يصدأ، كذا الفرد من آيت إيزرگان لا يخطئ !
ولكن لا تقول شيئا أيها المقدم ... والتعاسة تقتلني .
يا عزرائيل ! ليزل الموت عاري وحزني !
وليغفر الله الرحمن الرحيم للضّالين ! ..."

خاتم يا مولاي

كان هناك " طالب "، حكيم،
هجس خاطره بأن يختبر الناس
في سلامة فطرتهم وصفاء قلوبهم.
تجرد من ثيابه كلها
وسار عند تاجر غني :
" ماذا ينقصك أيها الرجل العاري؟
ـ خاتم، يا مولاي !"

ذهب عند رجل يملك مائة شاة
ولم يعرف أبدا الجوع:
" ماذا ينقصك أيها الرجل العاري؟
ـ خاتم، يا مولاي !"

وذهب لمقابلة القائد
الأعمى والأصم تجاه آلام الناس:
ماذا ينقصك أيها الرجل العاري؟
ـ خاتم، يا مولاي !

وذهب إلى مكتب "الحاكم".
وفي الباب، أوقفه الشاوش :
" ماذا ينقصك أيها الرجل العاري؟
ـ خاتم، يا مولاي !"

ذهب بالقرب من مسكين
معدم مثله :

ماذا ينقصك أخي العاري ؟
ـ خاتم، يا مولاي !"

وذهب إلى العين التي تستسقي منها النساء
نكست البنات عيونهن:
" ماذا ينقصك أيها الرجل العاري؟
ـ خاتم، أعانكم الله !"

وصل الحكيم عند راع
غني بالتأملات والعزلة :
" أيها الرجل، قال الراعي، هذه جلابتي لك
وتعالى اقتسم معي خبزي ..."

آنذاك قال الحكيم للراعي :
" أتكون وحدك، أيها الراعي،
من يملك نور سلامة الفطرة
وفي قلبك نداء الشفقة؟
بماذا يمكنني أن أجيب أفضل
أيها الناس المجردون من الحكمة والشفقة :
" ماذا ينقصك أيها الرجل العاري؟
ـ خاتم، يا مولاي !"

... الأمر متأخر جدا ...

لك أنت، سيكون الأمر جيدا،
سيكون الأمر جيدا لك أنت
بأن تعود للبلد ..
أنا أكابد، يا زوجي !
فالشهور، والأسابيع تتعاقب
وأكثر من سنة مرت !
وأنت تعلن دوما قدومك.
لكنني أتلظى في الانتظار
والنهار والليل، والليل،
إفهمني، والليل ...
أنا سقيمة، وقواي خائرة،
زوجة أبي فهمت ذلك.
إن تأخرت، تأخرت في العودة
من بلد " بوجو[1]" البعيد،
يا زوجي الذي أحبه،
سيكون لك في خطئي
نصيب أوسع مني ...
من يمكن أن يقاوم السيّل،
والرياح العاتية التي تكسر الجوز،
من يمكن أن يقاوم إمرأة في احتدام الربيع ؟
لو تعلم، لو تعلم، يا زوجي !

---

1 الرجل يعمل بمعامل بوجو في فرنسا

هناك عبد النبي، جارنا الظريف،
الذي لم أعد أحاول الإنفلات منه .
وأشعر بأنه لن يجد عناء،
لا عناء في فك حزامي .
بعد ذلك سأبكي : من العار والندم !
ولكن في الصبح، في الغد،
وما أن يظهر أمامي،
سأكون من الآن فصاعدا ضده، ضده،
وأعرف جيدا ما أرغب فيه ...
فالطبيعة شاءت ذلك، بالنسبة للبهائم والناس.
وإن لم يأت في الأيام الموالية،
سأسير عند الحاجة أطلبه في داره !
لك أنت، سيكون الأمر جيدا،
سيكون الأمر جيدا لك أنت،
بأن تعود بسرعة للبلد.
لكنني أعتقد أن الأمر تأخر،
لقد تأخر كثيرا، يا زوجي !
الأمر تأخر كثيرا، يا زوجي !

إيـــــــزا

عيناي أفرطتا في البكاء، عيناي،
حتى جفتا من الدمع، عيناي ...
ومن أجل صغيرتنا إيزا، أحصينا تسعة فصول حصاد ،
وصعد القطيع تسع مرات إلى مراعي الصيف.
ومن أجل صغيرتنا إيزا، لن نحصي أبدا فصول الحصاد
ولا انطلاق القطيع نحو مراعي الصيف ...
من الآن فصاعدا، سنحصي السنوات التي غادرتنا فيها ...
قبرها هناك فوق، في تراب المقبرة الأحمر.
وهو أيضا في أعماق أعماق قلبي
إيزا، أراها أينما حللت
ورأسي يضج بصوتها وضحكاتها.
نقول : التينة التي كانت تستظل فيها إيزا ...
نقول : عتبة الأجداد حيث كانت إيزا تفرز الذرة ...
والمنفاخ الصاخب، اللعبة التي كانت تستهويها منذ مطلع الفجر
لإيقاظ النار الأسيرة تحت الجمر.
والمرآة العتيقة المشقوقة حيث كانت يوما بعد يوم،
مهمومة ومفكرة، ترى فيها موتها القادم ...
كل شيء يحدث بمشيئة الله.
في كفن مصبوغ بالزعفران
حملوها، حملوا إيزا ...
ومنذ ذلك اليوم ـ لتكن مشيئة الله ! ـ
صرت كشجرة بدون أوراق، ودار بدون نار.
عيناي أفرطتا في البكاء، عيناي،
حتى جفتا من الدمع، عيناي ...

تـــــهــــويدة

"... نم، نم ، صغيري !

فبورحو[1] ، كسرت رجله.

والدجاجة فوق المجثم

ولم تعد تقوم أبدا بـ " كت ! كت !"

دخلت الشاة

ولا تقوم أبدا بـ " بر- بر !"

وبوبا[2] أمام التبن

لا تقوم بـ " هوم - هوم "

الآن وقت القطة

التي ترى بوضوح في الظلام.

وبالنسبة لك أنت الذي لست قطا،

بالنسبة لك الوقت، وقت النوم ...

في رأسك، وفي يديك، الحناء[3]

وفي معصمك دملج الصوف[4] .

لكي تنام نوما هنيئا.

ولتحل بركة الأطفال الصغار

الذين لا يعرفون شيئا من هذه الدنيا

1 بورحو : الغول الذي يخافه الصغار
2 البقرة
3 يعتقد الأمازيغيون أن الحناء محملة بالبركة وتحمي من العين الشريرة
4 يمتلك الصوف أيضا طاقة على الحماية وجلب الخير

على هذه الدويرة وتمنحها

الصّحّة و الوفاق والرخاء !

نم من أجل راحتك وسعادتي !

ـ يارب ! امنحه النوم والصحة

ببركة الأولياء الصالحين ! "

مليكـــــة

في الجدول، ظهرت لي، عارية،
وضعت لحافها وحزامها الصوفي
ومثل حسون، شالها الأصفر و الأحمر.
كانت تخال نفسها وحيدة تحت الصفصاف الأزرق،
مليكة عارية، مليكة، فرحة عيني.
مليكة التي بزت الشمس ببهائها .
وبهت القمر لإشراقها.
وكل حركة منها افتتان .
لقد رفعت رأسها وبسرعة، بسرعة، بسرعة شديدة،
تكومت على نفسها في الماء الشفاف،
اليدين متشابكتين على البطن في الماء الشفاف،
والرأس وحده خارج الماء الشفاف ...
وعيناها الحزينتان تلمعان من الغضب
ومن خوف أيضا، حين اقتربت منها :
" اسمحي لي مليكة ! ليس لي قصد سيء
ولم أتبعك لكي أباغتك ... "
ولكن، وعن جسمها الأكثر بياضا من الماء الشفاف،
كيف بإمكاني أن أنزع نظراتي؟
مليكة التي بزت الشمس بروعتها.
ومحت القمر بإشراقها.
قالت: " ليجعلك الله أعمى وأبكما !"
صمت ووضعت يدي اليمنى على عيني .

فلعناتها ودموعها اعتصرن قلبي.
لذا، ابتعدت، خجولا من خجلها ...
ومنذ أن ظهرت لي عارية،
مليكة البيضاء تحت الصفصاف الأزرق،
صارت تفر ما أن تراني،
معتصرة بقوة لحافها ومخبئة وجهها.
ولا تريد أن تمنحني ولو نظرة واحدة
ولا ردا على سلامي الحار.
إنها تكرهني، مليكة، هذا مؤكد،
لأنني رأيتها عارية، مليكة
وحيدة وبيضاء في فيء تحت الصفصاف الأزرق.
ومنذ ذلك اليوم، لا أفكر إلا فيها،
كما رأيتها، عارية تماما، في فيء تحت الصفصاف ...
مليكة، أما زلت بلا رحمة
لأنني فاجأتك، عارية تماما،
مليكة بيضاء تماما تحت الصفصاف الأزرق؟

أزوو[1]

" ... أزوو، نسيم الليل، ذات الاسم الحسن،
هل ستكونين قاسية دوما معي ؟
عن بابك، لن أبتعد أبدا
حتى يفتح أو أموت.
عيناك بالنسبة لي هما صوان الشرار
وشفتاك المفترتان عن أسنان بيضاء
تجذباني وتغوياني .
لثدييك استدارة خوخ أسرموح،
ولجلدك نعومة زغب اليمام.
لك وشم خفيف أزرق بين الحاجبين،
وهذا في الذقن وذاك في الكاحل.
والأوشام الأخرى، لن أراها أبدا أزوو ؟ ...
أسدلي شعرك على كتفيك البيضاويين
سأخبئ فيه رأسي كما يخبئ اليمام رأسه تحت جناحيه.
لماذا ترفضينني كل يوم بلا رحمة ؟
أي ابتهال، وأي هدية يمكنهما أن يحننانك علي ؟
صوتك يعبرني ويذيب قلبي
ووركاك، حين تسيرين، يؤججان رغبتي ...

---

1 أزوو : إسم عشيقة يعني نسيم الصباح .

أنت يا نسيم الليل ! أي وجل يمنعك عني ؟
إن منحتني شفتيك الحمراوين
فهما ستبقيان لك شفتيك المبللتين ...
إن تركت لي جسدك،
فسيبقى جسدك المرتوي أيضا لك ...
وسيفرح قلبانا معا !"

لم تكن تعرف[1] ...

المعزة الصغيرة اللاهية ذات اللحم الغض
المعطر بنباتات الجبل
والراعي العجوز يعرف هذا، لخدمة سيده ...
يناديها، تتوقف عن الرعي، وترفع رأسها .
وتجري بثغثغة فرحة.
لم يكن نصل الراعي المشحوذ ليخيفها.
ما عليها أن تخشاه ؟ فاليوم جميل !
يوم حقيقي للوليمة واللعب
لصغار المعز، الفرحات باللعب !
لم يكن للعشب الطازج أبدا مثل هذا الطعم
والماء الجاري، لم يكن بمثل هذا الصفاء ...
واثقة، جرت نحو صديقها
صديقها الذي تألف صوته الجهوري
والذي يأخذها في كل صباح إلى مراعي إيسلاتن .
الشرهة ! ربما له حفنة من الملح الأبيض ؟
أو حفنة من الشعير الجديدة ! الشرهة ؟
كان الراعي قد مددها على الأرض ... قضي الأمر!
لم تكن المعزة الصغيرة تعرف أنها ستموت ...

1 كانت مريريدة تمتلك معزة صغيرة لها فروة زرقاء ناعمة، وعندما كبرت المعزة بدأت تزعج الشاعرة فاضطرت للتخلي عنها، ولعل هذه القصيدة كانت من وحي تجربتها مع معزتها.

أزو[1]

..." أزو محبوبي، ذا الإسم الحسن،
كيف لي أن أقاومك أكثر ؟
إن كانت عيناي بالنسبة لك صوان الشرار،
ألا ترى أن البارود علي وشك الاشتعال ؟
وأنني أفك أمامك ضفائري السوداء؟
ادخل، أغلق الباب، واحكم القفل ...
لمدة طويلة، لم يكن لصوتك تأثيرعليّ .
لماذا تحزنني بكلامك عن هدايا،
بما أنني أريد أن أنسيك قساوتي ؟
سأعطيك كل ما تترجاه.
لك لساني الرقيق وشفتاي المبلّلتان،
لك ملزمة رجلي المتشابكين !
ما هم رؤية الآخرين لأوشامي المخبأة !
فلهم أبيع نفسي، ولك أمنحها !
من الآن، أزو، أنت وحدك في قلبي.
ماذا تنتظر لفك حزامي ؟
أزو، محبوبي، خذ شفتي.
ففمانا سيبقيان متداخلين،
وسيصير جسدانا جسدا واحدا
وسيكون قلبانا في غبطة ! ..."

1 تصغير لعزيز

سعيد هو اليوم

استسلمت ذات ليلة، والآن، تستسلم كل يوم ...
هل الذنب ذنبها إن كانت بنتا ملتهبة ؟
كم من مرة أقسمت : " لم أعد أريد ذلك أبدا !"
وفي الغد، خائرة القوى لتقول لا !
أيتها النساء الفاضلات، لا تلمنها ...
يمكن لهذا أن يحدث لكن، إن لم يكن حدث فعلا ...
إنه كاتب في المخزن، بأزيلال،
رجل شاب يحسن القول، وفحل.
وزوجها ؟ يقود حافلة مراكش،
حافلة تسير بالخشب إذ لم يعد هناك بنزين ...
يذهب في غبش الفجر، فالطريق وعرة،
ولا يعود إلا في ليل الغد .
عمل مرهق يشيخ المرء فيه قبل الأوان.
هاهو السائق، الزوج، يدفع الباب .
سيكون مرهقا، كما هي العادة،
كما هي العادة، وكما في الليالي الأخرى.
سينتظر، ستنتظر يوم راحته ...
إنه مرهق جدا حتى أنه لا رغبة له في الأكل .
يتساءل: " ما جديد بيتنا ؟ "
خفضت عينيها، وصوتها يرتجف قليلا.
" كن سعيدا ! فلا شيء هنا سوى الصحة وراحة البال !"

" الحمد لله ! أورگيس إلّي كراد ـ لباس[1] !"
يثبت نظره فيها ، أليست له نظرة قاسية ؟
قلقة، حبست أنفاسها، وعلى وشك الإقرار.
بقي صامتا...آه ! أنت أيها الصمت ! تكلم أخيرا .
" مبارك اليوم الذي تزوجتك فيه !
مبارك مائة مرة ! أيتها المرأة المحبة الفاضلة !
أنت فرحة عيني ! أنت يا فرحة قلبي !
أنت يا من تجعلينني أسعد رجل بين الرجال ...
ليحفظك الله
وليسدد خطاك في الصراط المستقيم !
ونام نوما ثقيلا، مرهقا وسعيدا
حبست أنفاسها، وعيناها جاحظتان،
وأمسكت جبهتها بكلتي يديها .

1 " بفضل الله، لابأس هنا "

الأمر هكذا دوما

هناك دوما من هو فوق .

هناك دائما من هو تحت.

الأمر هكذا دوما في هذه الدنيا

فوق الثروة، وتحت الحرمان .

تحت الضعيف وفوق القوة، القوة ...

والأمر هكذا في هذه الدنيا ...

الهاون خلق ليتلقى المدق

كما أن السندان صنع لتلقي ضربات المطرقة.

شق الرحى النائم يتحمل الرحى الدوارة .

ويرزح البغل طيلة حياته تحت البردعة .

والسطح ثقيل جدا على الركيزة التي تحمله .

واستمتاع القاضي مكلّف هو أيضا ...

رحماكم، لا تغنوا له أغنيتي !

أيها الطيبون. أما نسيت شيئا ؟

والمرأة التي هي دوما بدون دفاع !

المرأة ! المرأة التي هي تحت دوما ...

بدون عنوان

لو شاء الرب الرحيم سماع دعائي،
كم سأدلل زوجا شابا وطيبا !
كم منحت نفسي بلا لذة لما لا يحصى من الرجال
حتى أنني وحتى مماتي، سأبقى وفية له ...
سيكون لي طفلان أعز من عيني
سيلعبان الصيف كله في ظل أشجار الجوز.
وستتضوع جدران الدار برائحة الخبز الساخن .
وسيجد عابرو السبيل دوما بابي مفتوحا .
سأصحو باكرا وأنام في وقت متأخر
من أجل رغد وفرح بيتنا .
ولالة تازرزمت[1] فوق السحاب
تحمي أيامنا، ولياليناو أشغالنا ...
لو شاء الرب الرحيم سماع دعائي
سأعود للموت في تاساوتي ...
هذه السعادة التي أحلم بها لا أجرؤ على تمنيها .
إنها مثل زهرة " تيشكي[2] " العطرة
معلقة في علو غصن أخضر.
مهما مددت لها يدي، فإنني لا أصلها أبدا ...

---

1 قمة جبل (3285 م) تنتصب قرب قرية مگداز
2 شجيرة صريمة الجدي

أختـــــــــاه

" أختي، لا تؤاخذيني .
طبعا لم يكن عليّ أن أنام في " العزيب[1]".
أتعرفين يا أختي ما يحدث في العزيب
و في ليلة حارة و قرب رجل شاب ...
أأكون الوحيدة التي لانت
بين يدي رجل أختاه ؟
أبإمكاني أن أفكر بأن لهذه الليلة، يا أختي
غداً فادح الكلفة على بطني ؟
احفظي السر على الأقل، يا أختي !
فالعجوز تموشة تعرف مزايا الأعشاب
أعشاب ستخلصني بسرعة مما في بطني .
ولن يرى الناس شيئا بعد ذلك
لتموشة الشبّ والرّاتنج
اللذان سيعيدان لي بكارتي.
ووعدتني بأن تزوجني،
أتصدقين ذلك ؟ لقريبنا العزيز ...
قولي، يا أختي، هل سيكون زوجا طيبا ؟
ماذا يتبقى لنا ضد الرجال
إن لم تكن لدينا الحيلة و البسمة ؟

" تيمغارين" ... " تيمغدارين[2] " ... يا قريبي!

1 مكان المرعى في الصيف
2 مثل أمازيغي " نساء ... غدارات " حيث التقارب الصوتي

المشــــــبك

" جدتاه! جدتاه !منذ رحل،

لا أفكر إلاَّ في حبه و يتراءى لي في كل شيء ...

أعطاني مشبكاً فضياً جميلاً،

وحين أضبط حائكي فوق كتفي،

وحين أشبك الهدب فوق ثديي،

وحين أنزعها، في الليل، لأنام،

لا أرى المشبك بل أراه هو!

ـ بنيتي ارمي المشبك و ستنسينه

وستنسين آلامك ...

ـ ... جدتاه، منذ أيام رميت المشبك،

لكنه جرحني في يدي

ولم تعد عيني تفارق الندبة الحمراء،

حين أغسل، حين أنسج، حين أشرب ...

لا أرى الندبة بل أراه هو!

ـ بنيتي، ليشفيك الله من آلامك!

الندبة ليست في يديك، بل في قلبك ".

الأعـــــمى

حين أراه، ينقبض قلبي للتو،

إنه لا يرى شيئاً ممَّا يحيط به

لا الوجوه، ولا النظرات، ولا الضحكات،

لا الأشياء، و لا الألوان، و لا السماء،

و لا حتى الكلب التائب الذي يلعق يده ...

وحين يصلي، لا يتبين قبلته.

يتنفس، و يأكل، و يسمع، و يتكلم،

بإمكانه أن يشد على اليد التي تسلم عليه،

لكنه يعاني لأنه يفكر بلا انقطاع .

يتذكر ما كان يراه و لم يعد يراه أبدا .

يمكن لفمه أن يبتسم لكن قلبه ينزف .

لأنه يعرف بأنه سيموت دون أن يرى من يحب .

كيف لم يجن ؟

جسد بدون عينين ليس سوى جثة

جثة يقودها إبنه ببطء وهو يشدها من يدها ...

يقال له : " إنه الليل"، فيحس أكثر

بأن الليل بالنسبة له لا نهاية له ...

يقال له : " بزغ الفجر" لتذكيره

بأنه لن يرى أبداً الشمس ...

لا أجرؤ أن أسأله إن لم يكن يتمنى الموت

بما أنه يغوص في ليل بلا نجوم

أفظع من ليل القبر الذي ينتظره .

... و إن أجابني بأنه يصر على الحياة،

رغم الظلام، رغم الظلام، رغم الظلام ؟

يا مولاي بن عباس!يا مولاي جبار! إسمعاني!

أنتما حماة من لا يرى!

لتعد بركتكما، و رحمة الله

النور للعميان المساكين!...

طريق النسيان

كم هو بعيد وخلفي يوم رحيلي،
الصباح المظلم الذي هجرت فيه الدار،
وهجرت أبي، أمي، إخواني، و أصدقائي
و هجرت تلك التي أحبها ولا تحبني .
تقول لي عيناي المهدودتان و تجاعيدي ولحيتي الدكناء
كم هو بعيد زمن شبابي
حين دفعني الغم و الكبرياء للرحيل،
لأن التي أحبها، لا تحبني ...

وهكذا سرت في الطريق، طريق الأسى،
طريق العمل الشاق، طريق الجوع،
طريق الغضب، و الحقد، و اللعنة،
وحب لقاءات لا تخلف إلا الإحباط .
خفت مرارتي فصلا بعد فصل
ومثلما يذوب الأفق في حلكة الليل .
حتى أنني لم أعد أذكر يوم رحيلي،
حين كنت مازلت أحب تلك التي لم تكن تحبني ...

كل فصل يأتي لينضاف لآخرين
مثل الحجرة الجديدة التي تنضاف " للكركور[1]"
وتسحق الحجرة المتواجدة تحتها .

1 كومة من الحجارة فوق قبر ولي صالح أو فوق المكان الذي توقف فيه أو في قمة الجبل .

السنون تسحق و تطمر أفضل من الأحجار
وأنا أعرف الآن ما كانت عليه طريقي،
فالطريق التي سرت فيها سابقا، كانت دربا للنسيان ...
ولم يكن بإمكاني السير فيها لو بقيت في القرية،
لكن التي كنت احب أنا، هي لم تكن تحبني .

له كل ما يلزم

إنه تائه نزل من الجبال البعيدة
نراها لكننا نجهل أساميها،
يخال لنا أننا نرى ميتاً خرج للتو من القبر الذي ووري فيه حديثا
تطارده بغلة القبور[1] الحرونة .
يخيف الأطفال و يقلق الأبقار .
لذا، في القرية، في الحقول، نطرده، ابتعد !
بدون أن يطلب منه أبدا ما يريد.
سيقول أنه يريد أن يعمل مقابل قليل من الخبز.
وهذا الليل ربما، حين تتعالى الأدخنة من السطوح،
سيمد له باب موارب زلافة " أسكيف[2] "
وغدا، " إن شاء الله " سيعطاه عمل ما ...
أو ربما غداً سيكون مثل اليوم، مثل البارحة ...
ومع ذلك، فهو لا ينسى أبداً صلواته، صلواته
ورغم بؤسه الذي لا نهاية له، فهو مازال يصر على الحياة .
إنه معدم مثل ركيزة باحة الدرس .
لم يتبق له إلاّ الهواء الذي يتنفسه.
إنه يسير، يسير ... جوعانا جداً
حتى أنه سيرتمي على الخبز قبل أن ينضج .
الكرش فارغة، يمني نفسه ببطنة .

---

1 يرى المعتقد الشعبي بأن المرأة التي يموت زوجها ولا تحترم شهور العدة تمسخ في كل ليلة في هيئة بغلة قبور مريعة تقضي الليل جارية ومعترضة الناس .
2 أسكيف : حريرة

و من سيمنعه من غمس خبزه في الماء المحلى ؟
سيختبئ مثل كلب لقضم عظم ...
وسيحس بأن كل ما يحيط به يعاديه .
بيد أن الساقية تسمح له بأن يشرب جرعات كبيرة
والمنحدر لا يصده أبداً حين يريد أن ينام ...
فهل يكونان وحدهما من يشفق عليه؟
لا أقارب و لا أصدقاء له .
وهو بدون عمل، و بدون مال وجوعان .
وهو لا يحس بالبرد الآن، لكن الشتاء قادم .
له كل المبررات للقيام بأمر ما.
ليغفر الله الرحمان الرحيم له !..

العاشق السيئ

"... رح أيها الگومي، الذي بلا ذوق ولا لباقة !
يمكنك أن تبدي ازدراءك الكامل الآن،
اليد مرفوعة، و السبة في الفم،
فقد حصلت الآن على كل شيء مني .
وسترحل و أنت تسبني بالكلبة !
وقد ارتويت، أردت أن تجعلني أخجل من مهنتي .
وأنت، ألم تخجل و أنت منتصب كثور،
حين تدفع برفق بابي ؟
أأتيت عندي لتلعب الورق ؟
تتظاهر بالخضوع و المسكنة أيها الگومي
مذعناً مسبقاً لمتطلباتي،
حتى لو كلفك ذلك ضياع أجرتك كلها !
و بقدر ما كانت عيناك تذرعاني وهما تلمعان،
كانت رغبتك العنيفة تضعك تحت رحمتي ...
وحين اكتشفت أخيراً لحمي،
كان بإمكاني أن أطلب منك روحك
وأن تلعن أمك و أجدادك !
أي سماء بهجة حلقت نحوها؟
الآن و قد هدأت ها أنت تعود إلى الأرض
متكبّرا، و قاسيا، و فظّا، كجلاّبتك .
يا أيها الضيف المسكين للحظة، يا عبدي،
ألا تحس على الأقل بقرفي و حقدي ؟

و ذات ليلة، ستقودك ذكرى هذه الليلة
عندي، مهزوماً و خاضعاً .
وسيبقى كبرياؤك في عتبة الدار
و سأضحك من نظراتك و توسلاتك .
لكن سيلزمني، هذه الليلة، ثلاث مرات ما أعطيتني
إياه في المرة السابقة.
ستكون هذه هي ذعيرة تكبرك و سبابك .
ولن أكترث أبدا لعناقك
فالساقية لا تنتبه لقطرة الماء !

نار السماء

" إيگيگ[1] !" " إيگيگ !" يمكنك أن تزمجر ما حلا لك !
ولّيت نظري نحو الجدار، هذا صحيح،
لكنني لن أخبئ وجهي .
بفضل الله وبركة رحاي[2]
لن تلبث أن تصمت .
حتى تبرد نار الغمام
لقد دلقت الماء فوق العتبة
ووضعت السمن[3] في رتاج الباب .
وأنت أيتها الحناء ! وضعتك فوق رؤوس الأطفال،
والنساء، والصبايا والشياه !
أنت أيتها الحناء ! توسلي لنار السماء !
فوق سطح الدار، تسهر " الگدرة "[4]
فالمع أيها البرق! وزمجر أيها الرعد !
لكن لا تسلط علينا صواعق النار،
وليتجنب البرد حقولنا الصغيرة !
يا رب ! احفظنا من نار السماء !

---

1 الرعد
2 وهن خائفات تحرك النساء رحى اليد معتقدات أن صوتها الذي يشبه الرعد يبعد الصاعقة
3 شعائر ما قبل إسلامية مازالت قائمة
4 تعتقد النساء بأن للقدر المتفحم من كثرة الاستعمال إن وضع في ركن في السطح مفعول غبعاد الصاعقة

لا صداقة حقيقيّة

لا صداقة حقيقية مع أحد، أيها الناس !
حدو ! حدو ! الذي اعتقدت أنه أخي ...
تلك التي بسطت لها الليلة الأولى
خيط الصوف ولففت أصابعها[1]،
كان لها رغم ذلك خصلات شعر مجعدة في جبينها
خصلات تحمل السعادة والرخاء للبيت الجديد[2] ...
من همس لها إذن وتلاعب بعقلها، عقل امرأة
حدو، حدو، الذي كنت أعتقد أنه أخي ؟
إن جنون العشاق يخنق العقل ويجلل بالعار.
يارب، اهدنا سواء السبيل !

لا صداقة حقيقية مع أحد، أيها الناس !
محند، بابا محند، ذو اللحية التي صار بياضها أكثر من دكنتها ...
أيمكن أن نشك في شريك ذي لحية بياضها أكثر من دكنتها ؟
شريك لا يغش في الحملان المولودة في العزيب،
ولا يأخذ أكثر من نصيبه في سمن العزيب،
ولا يحمل ابن آوى وزر اختفاء معظم الشياه ...
لكن الكلام هش مثل فخار لم ينضج تماما .
محند، بابا محند، لم أعد أثق في الشركاء.
وبسبابتي الممدودتين أمامك، رججت أذني[3].

1 عادة الزواج في الأطلس الكبير يرمز الصوف للخير وشبكه في الأصابع يعني الارتباط
2 يعتقد أن من تحمل " تاونزة " أي خصلات شعر تنسدل على جبهتها امرأة مباركة
3 حركة تفيد أن الشراكة فضت

يا رب، اهدنا سواء السبيل !
لا صداقة حقيقية مع أحد، أيها الناس !
وعدني الأمغار[1] وهو يقسم بسيدي أنفيگ[2] ...
من أجل خلاصه نسي، المغفرة له.
ليشمل سيدي أنفيگ بحمايته الكل !
ماهو القسم يا ناس ! القسم الذي يتبدد
مثلما يتبدد الغمام الأبيض المعلق
في تيگليست[3]، لحظة فقط؟
قسم يعبر كما يعبر طيران اليمام ؟
كم كانت صاخبة نفحات صداقتك، أمغار!
فالقربة المملوءة ريحا تحدث
صوتا، لكنها فارغة .
يا رب، اهدنا سواء السبيل !
لا صداقة حقيقية مع أحد، أيها الناس !
فالعالم بلا دفاع ضد الكذب والخيانة،
توأما الشر الذين يسيران خلفنا .
فلا تصدقوا لا هذه التي تملك السعادة،
ولا هذا الذي تضعه قوته فوق الشبهات،
ولا في ورع اللحية البيضاء أكثر من الداكنة ...
ليرحمنا الله الرحمن الرحيم
وليجنبا الكذب والخيانة !
وليهدنا الله سواء السبيل !

1 الأمغار هو شيخ القبيلة
2 أحد أولياء وادي تاساوت وله ضريح بالقرب من جدول تاغولسات
3 قمة علوها 3000 م بالقرب من قمة لالة تازرزمت 3285 م وكلتاهما تشرفان على فج تيموتا حيث مگداز

تامكساوت[1]

أيتها الراعية، ابقي في البلد، أيتها الراعية !
اسمعي صوت مريريدة.
فلأنك بدون والدين، سيخدعونك ...
لا تبدلي خبز شعيرك الطيب
بالخبز الأبيض الذي يعيدونك به ...
ماذا تعتقدين أنك ستفعلينه في المدينة ؟
لو كنت تعرفين ماذا ينتظرك!
عليك أن تمنحي نفسك للرجال
إن رغبت في الأكل والنوم .
وستنتقلين من الواحد للآخر،
ولا شيء بالنسبة لك إلا هذا ...
سيتملكك الكسل و الفسق و سيجرفانك
ولن تقدري على العودة من حيث أتيت.
ولو عدت إلى البلد بدون إحساس بالعار،
سيطردونك ويلعنوك ...
لو كنت تعرفين ما ينتظرك !
سيقتلك الندم ...
... حلاب " أسكيف " الكبير في الصبح،
الشتاء والثلج فوق تازرزمت،
والشرفة المشمسة،
والبقرة التي تخور في الإسطبل،

---

1 تامكساوت : الراعية

أغانيك ستندمين عليها

وكلما حضنك رجل ما ...

ستندمين على

تاساوت وجوزها،

ثغاء القطيع في " العزيب "

الحليب، والزبدة في الدار،

البغل الذي يعرفك جيدا،

وكلبك ، ستندمين عليهم

كلما حضنك رجل ما ...

... أيتها الراعية الفتية من وادي،

اسمعي صوت مريريدة،

لو عرفت ماذا ينتظرك !

فالمدينة بالنسبة لك قبر!

أيتها الراعية، ابقي في البلد، أيتها الراعية ...

... وشرعت أمي في البكاء ...

حين دخل مع أمي،
حين جلس قليلا في الظل،
عرفت ما جاء يوحي لي به ...
لكن ماذا ! أخريات غيري،
أخريات كثيرات طلقن !
يقول الرجال : " النساء سيئات ".
وتقول النساء ليس هناك أبدا أزواج طيّبون .
زوجي أنا، الساذج، غرر به
مثل فرخ حجل خرج لتوه من العش.
أغوته الأخرى وأنا أشفق عليه
وأشفق على نفسي فقريبا سألد
ولدا له لا يكترث به أبدا ...
تحدث، تحدث ... وما الفائدة من كذبه
كذبه الذي يخزني في بطني كمدية
ومثل مائة مدية تمزق قلبي؟
تحاملت على آلامي،
آلام قلبي وجسمي .
وابتلعت غمي، كل غمي .
ولم يكن علي أن أشرب دموعي،
فلأكفكفها، عضضت شفتي ...
وفي وجهي المسكين الشاحب المتشنج
دعوت بسمة طويلة، بسمة طويلة،
وتقول بسمتي، بسمتي التي تؤلمني،
كل ازدرائي، وشفقتي وغفراني .
راح وهو يداري وجهه
وشرعت أمي في البكاء ...

كل واحد ينفخ

يفكر ابن أوى في وجره وجرائه،

والطائر في عشه، والإنسان في عائلته

ومن أجل رغدها يكرس أيامه.

ذلك هو القانون الذي يسود في الطبيعة ...

ألا تنقب الشجرة التراب بجذورها

وبفننها ألا تبحث عن النور

لتخنق وتقتل جاراتها ؟

ماذا تفعل الكائنات الإنسانية في هذه الدنيا ؟

فكل واحد ينفخ على كوز ذرته المشوية ...

كل واحد يدير يديه المفتوحتين نحو وجهه .

لي أنا الصوف لأحمي ظهري،

لي أنا العظم المليء باللحم الشهي !

وللآخرين" الكرداس[1]"، للآخرين !

1 الكرداس : نوع من القديد وهو لحم مجفف يشكل من أطراف من معدة ورئة ومصارين الخروف

... أكانس أول نو[1] ...

في أعماق قلبي تضطرم دوما
نار حب و تتآكلني.
هجرني علي، ابن علي تاسلمت،
هجرني، لكنني لا أكرهه أبدا .
حقدي مسلط كله على من أخذته مني.
قلبي كان يخفق له، وقلبه أيضا.
فلماذا فضل عليك إذن تابجاوت[2]؟
وأي سحر استعملته أوكناري[3] ؟
خافي من لقائي وحدي في الغابة ،
في الصبح، حين تعودين محملة بالحطب !
وأنت يا محبوبي، محبوبي الدائم، أنا في انتظارك .
و ما عليك إلا أن تظهر لتأخذني.
إنكن تعرفن بِؤس النساء الوحيدات،
إنكن تعرفن كم هو طويل الليل
وكم هو لاسع ببرودته الصحو بدون اضطرام عشيق.
أبينكن امرأة واحدة لتلومني على هذا ؟
نار الحب التي تتآكلني
تضطرم دوما في أعماق قلبي ...

1 في أعماق قلبي
2 تابجاوت : ناقة صغيرة
3 أوكناري : التين الشوكي

هنـــــــاك

حين أكون وحيدة، في صمت وسلام،
أفكر دوما في القرية التي ولدت فيها .
في هذه الساعة، ماذا يفعل أولئك الذين تركتهم هناك؟
إن فكروا في، فليكيلوا السباب لي.
أنا التي حدت عن سواء السبيل.
لكن قلبي لازال متعلقا بصخور وادي.
فلالة تازرزمت تنشر ظلها وحمايتها
فوق السطوح الحمراء المحاطة بشجر الجوز الأخضر.
وحدها القمة مذهبة كلها بالشمس .
مثل " ترزا [1] " " دوم " جديدة .
والنساء لابسات الأحمر والأزرق والأصفر والأبيض،
يقتلعن الحشائش الضارة من الحقول.
إنهن كزهرات مغروسة وسط حقول الشعير الخضراء .
لا أحد ينتظرني في قريتي، هناك،
هناك خلف الفتيل الذي نراه من هنا حين يكون الجو صحوا.
لن أعود أبدا إلى حيث ولدت .
لأنني أعرف جيدا بأن الناس سيطردونني .
وإن قيد لي أن أعود يوما للبلد،
فسأذهب للدوار المجاور عند خالتي الطيبة جدا.
وستختلط دموعنا، لأنها ستفهمني،
لأنها في شبابها هي الأخرى، وبعيدا عن هنا،
كان لها نفس المهنة الحزينة ...

1 قبعة كبيرة تصنع من الدوم

ماخ إيليـگ أد ـ تالات، أتافروخت[1]

" لماذا تبكين، أيتها البنت ؟ أبلغ منك الحزن مبلغه ؟ "
- إنهم كلهم في العزيب، هناك فوق، لشهرين طويلين،
القطعان، والناس والبنات الصغيرات مثلي.
وتركوني وحدي مع الكلب والجدة ...
وعيناي الكبيرتان المفتحتان ليستا بسعة
الدموع الكبيرة التي تملأ قلبي الصغير،
حين أبكي، يبكي كلبي أيضا وجدتي هي الأخرى .
" وأنت يا فرحة عيني، يا فرحة قلبي،
لماذا تبكين، ولم تبلغي بعد عشرين سنة ؟ "
- لم أعد أسمع صوته، لم أعد أرى عينيه.
وأعيش بذكرى عناقه ...
كيف لا أبكي ؟ هذه الليلة وهو ليس هنا ...
لقد ذهب بعيدا جدا ...
ولن تعيده دموعي إلي ...
" وأنت، أيها الرجل العجوز، لماذا تبكي وأنت في هذه السن ؟ "
- في هذه السن، لدينا دوما شيء لنبكيه
حين يرتد بصرنا للوراء، نحو أولئك الذين لم يعودوا هنا .
والولد الذي تبقى لي قد تأخر في العودة إلينا ...

---

1 لماذا تبكين أيتها الفتاة

وكم يؤلمني أن أموت ولا تجتمع نظراتنا .

دموعي، واحدة، واحدة، تحصي أيامي الأخيرة ...

وأنت، أيتها العجوز المسكينة، لماذا لا تبكين ؟

ـ كم شقيت، وكم تألمت !

لم تكن حياتي سوى حزن،

ومأتم وبؤس ...

فقلبي وعيني جافان كبيدر .

كم نهلت من بئر الدموع حتى جفّت ...

ومنذ زمن طويل لم أعد أعرف أبدا كيف أبكي ...

أنا أغني ...

أنا أغني، لأنني حصلت على بقايا جيدة من الوليمة ،
وليمة زواج سيدي، الرجل البخيل والقاسي ...
منذ اليوم الذي لم أرضع فيه ثدي أمي،
هي المرة الأولى التي آكل فيها حتى الشبع ...

أنا أغني، لأنني أرتجف خوفا،
وحيدة، في الليل الحالك، في المسرب .
الحلكة صنيعة الشياطين
من شرورهم أنا خائفة ...

أنا أغني، لأنني أضجر
مع خرافي في المراعي الكبيرة
حيث لا ضجيج ولا أحد
لذا أصاب بالضجر ...

أنا أغني، وقلبي حزين، لأنسى
من وعدني بالزواج .
فالأغنية تبعد لحظة الحزن،
لكن ليس بإمكاني أبدا أن أنساه .

أنا أغني مثل أم فرحة بمولودها الأول
أم تضم إلى قلبها طفلها الصغير.
إنه لا يرى بعد لكنه يبتسم .
كيف لا يمكنني أن أكون أما سعيدة ؟

حبات السبحة

مثل حبات سبحة الصلاة،
الأيام التي تكر من بين أصابعنا
فرحة أحيانا، وباكية أحيانا
بحسب إرادة رب العالمين ...
إنهن حبات سبحة الحياة .
يمكن لسبابتك أن توقف جريان
حبات سبحة الصلاة .
سواء كن فرحات أو حزينات، لا يمكننا إيقاف
مجرى حبات سبحة الحياة .
فوق راحة يدك تنزلق أمانيك،
وابتهالاتك الحارة لأولياء البلد،
ولله الرحمن الرحيم .
وكل حبة تصرمت تحدث دويا في قلبك .
ترغب أمانيك القلقة في تغيير القدر...
لكن ومهما تكن همتك
فلا شيء يغير ما هو مسطر
في كتاب الأفراح والمحن،
حبات سبحة الحياة ...
" الله أكبر! " وسبحان الله !

دعاء من أجل عين جافة[1]

... يا رب، اسمع دعاءنا !
من سيعيد الحياة إلى حقولنا ؟
من سيقول لنا ما يجب عمله
لإرضاء الجن السيئ
الذي يسلط الصاعقة على أعيننا؟
أيتها الأرواح التي تحمي جبالنا
انتصروا على القوى الشريرة
لكي تظهر مجددا العين الصافية المحولة
حيث ضربت النار.
ها نحن مساكين وتائبون
أمام الصخرة المغلقة من طرف الصاعقة .
يا رب، اغفر أخطاءنا وخطايانا !
أيتها الأرواح حماة جبلنا،
إن كنا نستحق حقدكنّ،
فلا يطال أطفالنا !
يا مولاي سليمان، ملك الجن،
سيد الجبال والثلج والمياه،
حامي المراعي والقطعان،
سننحر من أجلك ومن أجلهم .
هذه هي الأضحية الكبيرة، يا مولاي سليمان !

1 في سنة 1926 أو 1928 ضربت الصاعقة عين أغنسو نواراك فنضبت العين التي كانت تسقي بضعة هكتارات ولعدة سنوات كان الناس يبتهلون لله ولأسياد الجبل حتى تعود العين كما كانت .

ها هو الماء الطاهر الذي تنثره العذارى
بكثرة على الثقب الميت،
لأن الماء البتولي يدعو الماء البتولي
لانبعاث عيننا .
يا رب ! ارحم عبادك !
أعد لنا الماء، أم الخصوبة
ومولد الخير العميم .
جميعا نردد دعاءنا من أجل الماء
بكل حماس الناس المحرومين .
يا رحمن ويا رحيم ،
استجب لمن يدعونك !

السي علي من إيباقلوين

أســـــــــافو[1]

" شوت ! شوت ! " انفخي، انفخي، أيتها الجدة،
على الجمرة الحية واللامعة كالذهب
حتى تضيء وتدوم أكثر
الوقت الكافي للعينين لتبصرا
لليد لكي تأخذ ...
أحركك في كل الاتجاهات، كسرة حطب النور،
ودوائر الذهب التي ترسمينها في الحلكة
تجعل جنّ الظلام يهربون .
اذهبي ! اذهبي ! عائشة تابوكاد الغولة
(لست أنا من تلفظ باسمك !)
أيتها الجمرة، إن تركت رأسك اللامع يسقط
فحفيدي الذي أحمله فوق ظهري سيخاف
ووالده لا يريد دموعا فوق خديه ...
عش، عش أيضا، جمرة النور، شقي الليل،
لامعة ومتغلبة على مخاوف الظلام
مثل ابن تومرت[2] الملقب جيدا .
(أيها المؤمنون، مجدوا اسمه المقدس !)
" شوت ! شوت ! " انفخي، انفخي أيتها الجدة

---

1 الجمرة

2 مؤسس الدولة الموحدية (1080م-1128م) وبعد قرون من موته مايزال صيته قويا في الجبال

لكن الجمرة المحتدمة لم تعد سوى رماد .

لا تبكي، " أكياو- نو[1] " هذا هو الباب .

غدا سنذهب لقطع بعض أغصان " تيفسي[2]"

وفي الليلة القادمة، ومن أجلك، سنشعل شمعة ...

---

1 صغيري

2 شجيرة كثيفة تصلح لإشعال النار

تمـــايورت[1]

كانت جميلة جدا، في يدي أمها !
سميت تامايورت، لأنها كانت وديعة جدا
وكم كانت محننة حين يتم تأملها ...
تمايورت كبرت، وهي تفقد صواب
الشبان المحتدمين وحتى ٱللّحي البيضاء،
فكم كانت جميلة وجسمها مشتهى ...
وتزوجت ـ هل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ ـ
مع بيدار الذي ليس شعاع شمس .
يعرج، وقبيح مثل الجوع وقضيبه ميت ولكن ... ولكن ...
ولكنه غني جدا حتى أنه يمكن أن يشتري
كل الأرواح وكل شهود الزور ...
بل إنه اشترى حتى تمايورت الجميلة
يا تمايورت ! وأنت الجميلة جدا اليوم،
ستنسين بسرعة في هذه الدنيا
في ما بعد، في ليلة ما، سيذكر اسمك الجميل
ولن يستبشر أي من الناس بذكراك
وسيرفع الناس أنظارهم للقمر هل صعد ...

1 البدر

الصـــــدى

يا مولاي سليمان، حاكم جن الجبال،
أي سحر خير أو مشؤوم
يصيبنا بسبب صوت الصدى؟
يا أسياد الغابات والماء الأقوياء،
لماذا تستعيرون أصوات الأحياء
أو من يدري ؟ أصوات بلد الموتى ؟...
حين كنت فتاة صغيرة، مع أخواتي،
كنت أحب أصداء الأودية العميقة
الوفية دوما للموعد .
في انتظاري، يمتزج الفرح بالخوف .
فالأصوات الغريبة تعود من فوق
لا كأصواتنا وهي تعود
ولكن كأصوات رعاة المراعي
أو، من يدري، كأصوات أهل بلد الموت...
والآن أنا امرأة، ولدي عشيق،
عشيق ذهب للعزيب لثلاثة شهور الصيف،
مع المعز، والشياه، والأكباش المحاربة .
هناك فوق، تتواجد أيضا شابات،
شابات يسببن لي قلقا .

هذا المساء، أريده أن يناديني، صاحبي .
أريد أن أسمعه يصيح: " دحو! دحو! "
والشابات لن يسببن لي أيّ قلق ...
لذا في الجبل، ألقيت اسمي .
الصدى، الصدى الجميل، لم ينزل نحوي ...
والقلب يعتصره ألم مفاجئ،
مرة أخرى صحت :" دحو! دحو! "
بلا جدوى، انتظرته، الصدى، الصدى الجميل
لم يجبني صوت صاحبي .
وأعرف جيدا الآن بأنه نسيني .

حبيـــــــــبة

" ... أعرف أن الجيران يوشوشون:
" ما بها صغيرتنا حبيبة؟
عيناها المتعبتان يفضحان ألمها. "
كيف لخدّيّ أن يكونا نضرين؟
والدموع المريرة شرابي
والحزن الأسود طعامي .
ميلود، أيها الصديق، صرت تهرب مني !
طرأ عليك هذا مع طلائع البرد .
قبل هذا، كنت تناديني كل ليلة
و تأخذني وراء الزرب .
ماذا يطلب الأعمى من ربه؟
عينان، وأنت الذي أرضته السماء،
تتظاهر بأنك لا ترى !
تلومني أمي على وقوفي بالعتبة،
ومشابكي الفضية، ومنديل رأسي
وحزامي الصوفي الأحمر الجديد
الذين أتزين بهما لك، بدون جدوى ...
كيف لخدّيّ أن يكونا نضرين؟
فالدموع المريرة شرابي
والحزن الأسود طعامي ... "

من الآن فصاعدا لا شيء يهمني

الشكر لكن، نساء القرية، أخواتي،

والشباب القلق الذي لم يعرف بعد،

وذويكم الذين عرفوا الحزن والمآتم !

الشكر لكم، أيها الشيوخ، رفاق صباي !

في أعينكم أرى شقائي وشفقتكم،

وبما أن صمتكم يكلمني بقوة !

فلماذا نزل ملاك الموت للدار،

لماذا اختار الحفيد الصغير، وليس الجدة ؟

ألم يكن علي أنا أن أقول له : " مرحبا !"

أنا التي عبرت طريقي في هذا العالم .

لا تبحثن عن كلمات مواساة، أيتها الجارات الحزينات :

فهن لن ينمن حزني ويجعلنني أنسى

لا تقلن شيئا حتى نفسي الأخير.

حتى تلك اللحظة لن أعيش لا النهار ولا الليل

إلا بفكرة المختفي التي لا تحيد،

كما يحس الأكتع دوما بغياب يده ...

حين أرى شابا قويا يمر من أمامي

والذي يذكرني بطفلي الصغير، ابن ابني،

الراقد وحيدا والتراب من تحته وفوقه،

يختنق حلقي وينفجر قلبي .

أنا أيضا، وأنا مازلت حية فإنني ومن الآن فصاعدا،

من الآن فصاعدا لا شيء يهمني في الحياة بدونه !

ففي عيني، صار الحليب أسودا مثل القطران،

وفي فمي، صار للعسل مرارة الحنظل .

والشمس فقدت بهاءها

وفرح الآخرين يسبب لي ألما، ألما ...

يا مولاي سليمان[1] ...

قالا الأب والأم :
" أبدا لن تكون زوجتك ! "
والجد، بقبضتيه الإثنتين المضمومتين،
يضرب رأسه بضربات قوية .
قالا الأب والأم :
" أبدا لن يكون زوجك ! "
والجد بقبضتيه الإثنتين المضمومتين،
يخبط رأسه بضربات قوية .
يا أهل الوادي، هل ستكون لكم فكرة جمع
هؤلاء ـ آه ! هؤلاء ! بأولئك ـ آه هؤلاء !
أعداء قبل أن يولدوا، ومنذ أجيال .
بينهم ثمة دم، ومأتم وحقد
مثل جدار أطول من تايسا ...
بما أنه لا يمكنهما أن يعيشا معا،
فمعا يريدان أن يموتا، العاشقان .
إن فقدان الأمل في الحب أصم عن العقل .
ذهبا ودون أن يتفوها بشيء، وقد حلّ الليل،
في الوقت الذي كانت فيه القدر فوق النار
مثل فارس أسود فوق حصان أحمر
يتخبط بقوة و يرفس في مكانه .
وفي قلب الوادي كان عليهما أن يتوقفا،
بينما هناك، وبقبضتيه المضمومتين
الجد يضرب رأسه بضربات قوية .
الرعد يزمجر، والبرق يلمع في السماء،

---

1 الرعد

" يا مولاي سليمان، ملك الجن،
ومالك الأشجار والماء،
نبتهل لك بكل ما أوتيت أرواحنا .
لم تعد لنا رغبة في العيش،
سنهجر هذه الدنيا، الواحد منا يحضن الآخر
ولتجعل الموت يوحدنا إلى الأبد !
ويا رب، تقبلنا بمغفرتك ورحمتك ! "
سمع مولاي سليمان لدعائهم.
فدعى " إيگيگ[1]" ونار السماء
واستجاب لرغبة العشيقين اليائسين .
... إلى الأبد، إلى الأبد ستكونان مجتمعين .
أنت ستكون دفلى عملاقة،
وهي ستكون زهرة العسل الوفية .
ستعينها بكل قواك،
وهي ستحضنك بحب بين يديها،
كما كان الأمر في آخر عناق .
من الريح والبرد، ستحميها .
وفي الصيف، ستظللها بظلك .
وهي ستتسامى حتى جبهتك .
وستدع رأسها فوق كتفك .
الزنابير ستعلمكما بالقايلة
واليمام بالخريف، والزاغ بالشتاء .
والترغلة الثملة بالحب
ستغني لكما الانبعاث ...

1 الرعد

منيس إدّا؟[1]

أين ذهب، محبوبي، أين ذهب ؟
هنا، لا أنا ولا الجيران بإمكاننا معرفة ذلك
لأن وادينا صغير والعالم كبير.
يتمزق قلبي شيئا فشيئا كل يوم
كما يبتعد الصدع الفاغر فاه عن الجدار.
هل أصبح جنديا أو هو عند أهل الدار البيضاء؟
ولتضع الجمر في جرحي المفتوح
تدعي أمه بأنه مع أناس بوردو،
وبعد ذلك بكثير، والجراب مملوء حتى لا مزيد،
سيعود ليتزوج أخرى، أخرى ...
أنا لا أعتقد أنه اجتاز البحر.
ولو أن حبه لي قد خبا شيئا فشيئا
كما يبيض الرماد الساخن في البيت،
وحين عودته سيتعرف علي قلبه المستيقظ .
أن ياسمين البر المقطوع يصعد دوما للشجرة .
وسيكون علي أن أكون الجذع الذي سيريد احتضانه مرة أخرى .
أين ذهب، محبوبي، أين ذهب؟ ...

1 أين ذهب

إهــــانة

" إنك تخطئين، يا أم زوجي السابق،
إن فكرت في لحظة في أنني أعاني،
ولتذهبي لتقولي لابنك الذي طلقني
بأنه قد تلاشت من ذاكرتي وقلبي
الأيام السعيدة والسيئة في حياتنا المشتركة
مثلها مثل قشة التبن التي تذروها الريح ...
ولا أحتفظ بأي ذكرى
عن تعب أعمال الحقول،
الأحمال التي هدت ظهري،
القلل التي وسمت كتفي،
وأصابعي المحترقة وأنا أنضج الخبز
والعظام التي يتركها لي، أيام الأعياد ...
لقد أخذ الحلي. هل أهداها لي ؟
ألم يكيل لي الضربات فقط ؟
ألم يحضنني بين يديه فقط ؟
لم يتبقى لي أي، أي ذكرى ...
كما لو أنني لم أعرفه أبدا .
أنت التي كنت حماتي، اذهبي قولي لابنك
" بأنني لم أعد أعرف حتى إسمه ! "

رييد إدگـــــــام[1] ...

هذه الليلة، حلمت به بجانبي .
مات في الحرب، ها قد مرت سنة على ذلك ...
ولكنني أحلم بقوة بأنه هنا، حي ...
يا سيدي بو الرجاء، أنت الذي تخلص من الكوابيس،
أنت الذي تمنح القوة والثقة لليائسين،
اجعل ليالي خالية وللأبد من تنغيص أحلام
رائعة، لكنها مريعة حين أصحو ...
... كان يحضنني، وأتنشق نفسه .
" محبوبتي، كان يقول، ما أن أعود، إن شاء الله !
سيكون لي الحق في معاش سرجان شاف،
سنذهب لنعيش في بلدي دمنات .
لدي هناك منزل وزياتين كبيرة .
ستكون لنا بقرتان، وربما ثلاثة، وحقول
وستمضي أيامك في الهناء والفرح .
ولن يعوزك الشاي والعسل أبدا .
طبعا، سنتزوج، وسيكون لنا ابن
وبفضل حامينا والينا الصالح سيدي ناصر،
ستبدو لنا الأيام والليالي قصيرة جدا
بما أن سعادتنا ستكون كبيرة ... قولي، هل تسمعيني؟
ضمني إليه وكنت في دمنات،
في داري ومع ابني الصغير،

1 هذه الليلة

وكنت أغني له : " أكيياوو مزي، ما تريت؟ "
وفي هذه اللحظة استيقظت ...
ومددت يدي. لم يكن هناك أحد ...
وبدا لي شقائي الذي بلا قرار،
انتظرت الفجر وأنا أبكي في صمت .
مات في الحرب، ها قد مرت سنة عن ذلك .
... وهذه الليلة، حلمت به بجانبي ...

مديح واشمة

" عفاكم ! عفاكم ! " لالة تاوشامت !
بعنقي[1]، أنت لا مثيل لك
فبالنسبة للإبرة الكبيرة والصغيرة !
تعرفين جيدا استعمال السخام والكفنة
ليبقى أزرق وشمك إلى الأبد
ورسوماتك ليس لها مثيل في كل البلد .
وهذا معروف، إنهن يتنافسن على موهبتك
كل بنات ونساء قرانا .
ولا رجل يتزوج بدون أن يسألك
هل هي إبرتك حقا التي وخزت ...
خزي وطبطبي، وشامتنا المحبوبة !
لا تخشي شيئا، عفانية الصغيرة والجميلة،
فلالّة مباركة ليست متمرنة
إن كان جلدك حساسا مثل حدقة عينيك،
فيدها خفيفة مثل حبة الشوك
لا تتباكين بسبب وشم الربلتين
وزوجك سيدثرك باستهزائه !
وأي صراخ علينا سماعه في اليوم
الذي ستقررين فيه بالنسبة للمكان الذي نتف منه الشعر!
لا تتقافزي مثل عنزة،
وإلا ستغضب لالة مباركة، وستطلب أيتها الجميلة

1 كما يقسم البعض قائلا برأسي، في بعض المناطق الأمازيغية يقسم الناس بعنقهم.

وخز الضربان ...

" عفاكم !" لالة مباركة، كم هو جميل هذا الوشم !

ليباركك الله !

وليغمرك بمننه !

آزرگ[1] ! نتمنّاو ربّي ...

أيتها الرحى التي لا تكل، روح البيت،
أيتها الرحى، إننا نبتهل لله
قبل أن نحط يدنا عليك،
قبل أن يبدأ دورانك الصباحي .
أيها الحجر النشط، المذرور بالدقيق الموقر،
أيها الحجر، الروح الحامية للبيت،
أيها الحجر المكور المتزحلق، روح البيت،
أيها الحجر، المغني في غلس الصباحات
أنت الذي تصحي الرجال ليؤدوا الصلاة .
حجردار و دار فيما مضى،
مدفوعا بأيدي عجائز اليوم
والذي مازال يدور ويدور اليوم
تحت يد العروس الشابة النحيفة
والتي دخلت لبيتها الجديد، بالصحة،
والأمان، والسلامة والخير،
الحجر الذي سيدور طويلا، طويلا أيضا،
وفي المستقبل، تحت أصابع النساء المكابرات
والذين هم في هذا الصباح بنات لاهيات،
أيها الحجر الحي بفعل ما لا يحصى من احتكاك مع الناس،
والمحمل بالسحر السعيد والغامض
والمواتي لأهل الخير في هذه الدار،

1 أيتها الرحى، نترجى الله

الحجر المقدس من طرف اليد الشغالة،
اليد الوديعة والممتلئة للشباب
واليد الخشنة والنحيلة للجدة،
حجر لا يكل وطاهر، روح البيت،
يد لا تكل، ولادة للرخاء
يا رب ! لتبارك،
لتبارك، الحجر واليد !

إيـــــطـــو

لأنني ذرفتها، فأنا أعرف طعم الدموع
التي تسيلها النميمة والحسد ...
إيطو ! احذري، إني مريريدة التي تقول لك ذلك !
إيطو المطلقة، المهجورة وهي مازالت صغيرة،
ليس ثمة امرأة لا تعرف أين تذهبين،
كل يوم، بعد صلاة " العصر" ...
تذهبين لقطع الفصة، هذا صحيح
وترجعين بيديك ممتلئتين بالعشب، هذا صحيح،
الماكرة ! هل يمكن أن تجد تعلة أفضل من تلك
للذهاب لملاقاة مدان، ابن الشيخ
في ساقية إيتبيريم، تحت العفصية الكثيفة .
طبعا، رآها بعض البنات، دون أن تراهن .
فتكلمن، تكلمن ... لسان و سمّ !
والنساء بلا رحمة تجاه النساء الأخريات .
أيتها الجارات الطيبات ! لن نجرؤ على فعل كذاك !
يا أولياء الله الصالحين ! حماة دورنا !
تدخلوا لكي لا يتزوج مدان أبدا تلك البنت !
... لكن إيزا الصغيرة وأنت، دهو، التي لم تعودي صغيرة،
أليس ابتهاجكما الشرير بالأحرى سوى حسد ؟
أنتما مثل الراعية التي تصرخ : " لا أريد "
وهي تفك حزامها الصوفي الأحمر ...
كما لو أن غيظكن كنساء حاسدات

يمكنه أن يمنحكن المفاتن التي تفتقدنها !
مفاتن إيطو ! ابتسامتها وأسنانها البيضاء،
نظرتها الوديعة التي تخلب لب الرجال،
عجيزتها، وكفلاها الرجراجان والواعدان،
مشيتها الرشيقة كنمور أو بزازا،
وفوق كتفيها، شعرها المخضب بالحناء ...
وبرؤيتها، لا يمكن للرجال إلا أن يرغبوا فيها .
... في الليل، تعود إيطو والأنظار المرحة مسلطة عليها ...
والنساء يكتمن ضحكهن حتى تمر من أمامهن ...
يمكن لإيطو أن تتظاهر بالحياء !
ومازالت هناك دقائق الحطب في عجيزتها وظهرها ! ...
وفي الطاحونة تغتبط الصغيرات والعجائز،
الأفواه مليئة بالضغينة والعيون مليئة بالحقد .
إن أفواههن تفوح منها رائحة كريهة حتى أنهن يحملن
عقدا كبيرا من كبش قرنفل في صدورهن .
والرائحة طردت قملهن لا شرّهن ...
نعم، نعم، نعم ! ستحمل إيطو، هذا مؤكّد !
ومدان لن يتزوجها أبدا، أبدا !
وآخرون سيداعبونها بعصيهم
وسيجعلون قروحا حمراء تزهر في بطنها ...
ـ ليحفظنا الله ! نحن النساء الشريفات ! ـ
محتقرة ستربي إيطو ابنها وحدها،
ابنها الذي لن يحمل اسم والده ...
أي عار يا أمي ! أي عار يا أخواتي !

وهن يحركن رؤوسهن، تتخذ وجوههن سحنات متأسفة ...
فمتمنياتهن القاسية، يرونها وقد تحققت سلفا .
ويستمدن غبطتهن من أحزان الآخرين .
نعم، نعم، نعم ! إيطو حامل ! لا شك في ذلك !
ومدان لن يتزوجها أبدا ! لا، لا ثم لا !
... إيطو، احذري، إني مريريدة، التي تقول لك ذلك!
فالنساء بلا رحمة تجاه النساء الأخريات .
فقلوبهن شوك وألسنتهن زنبور.
ولأنني ذرفتها ، فأنا أعرف طعم الدموع
التي تسيلها النميمة والحسد .

تحية صباحية

..." لالة عزيزة، تحية الصباح لك ولذويك.
آيت أومنصور، عائلة خير وأهل تقوى
من لا يصحون أبدا دون أن ينظروا للشرق...
يا نار الصباح المقدسة، امنحيهم الهناء والفرح.
والأمان للأطفال، ليحميهم الله من العين الحسود.
الأمان للنساء الورعات، لهذه العائلة المحترمة
التي لا تنسى أبدا " أڤورام[1] أندرومان[2] ".
ليبعد عن دارنا الأمراض والأشرار.
ليضاعف الله ما تملكون ويجازيكم على كرمكم
تجاه المساكين الجائعين الجالسين فوق عتبتكم.
ليحمل لكم كل فجر الهناء والصحة !
ليبق باب آيت أومنصور مباركا أبدا !
ولتشمل بركة "أڤورام أندرومان" دوما القرية كلها.

1 أڤورام : ولي صالح
2 أندرومان : الشجرة المقدسة
الشجرة : " أندرومان " تديم حضور الولي الصالح وبركته، وفضائله، وحمايته وكلها صفات حصل عليها الولي بفضل ورعه وتقواه الكبيرين. ورغم أن الولي يموت فإنه بالنسبة للمؤمنين به حي دائم ويستجيب لحاجة الناس له. تقدس الشجرة ومن خلالها يقدس الولي، فالشجرة المقدسة تجسده. بل إن بعض الأشجار التي نقلت من الفأس تتحول إلى " السيد " نفسه، فكبرها العجيب وأغصانها الوارفة تعظم مكانتها. وهذا بفضل قربها من القبر الذي لم تعد معالمه واضحة، إن الأشجار المحيطة بالقبة أو شاهد القبر المرئي بالكاد تحترم دوما وبفضل هذه الخاصية يمكنها تملي الصنوبر، والسنديان. .

فهرس

تقديم المترجم عبد الكريم جويطي: وادينا صغير والعالم كبير........................... 5
تقديم ليوبولد سيدار سنغور.. 21
تقديم رونيه أولوج.. 25
طبيبتي.. 37
لا الريح ولا الغمام.. 38
ما ك إيارين باسو؟... 39
مريريدة.. 40
نار شبابي.. 42
عائشة، عائشة.. 44
سال الدم... 46
نشيد تاغونجا.. 47
لا باس،على خير وبخير.. 48
زوند أگو... 50
قلب أكثر برودة.. 51
ضع حجرا... 52
قوس قزح.. 55
العتبة الملعونة.. 57
الرحالية... 58
لن تأخذ معك.. 60
طائر الموت.. 61
لماذا...؟.. 63
شكوى... 64
كم... كم... كم.. 65
أغنية للراعيات الصغيرات لإيشباكن... 66
تظلم... 67
أدارن وأبوجدار.. 69
أغنية تاكركاوت... 71
أثناء الليل في الباحة.. 72
ريك... 73
الندم... 75
ما هو مستقبلي.. 76
كيف سيكون لي الوقت... 78
إينكر، إيدا، إيوفان لوكفان... 79

يا ريح تيزولا........ 81
أغنية مرتجلة........ 83
لم يخلق الله مكانا 84
النحلة 85
الطيور الثلاثة 87
الزوجة الثانية........ 88
إيقاريضن........ 90
ابتهال للقمر........ 92
الشاب المسكين الساذج 93
ما تريت..؟ 95
العرافة 97
تگات 99
الخاطبة........ 101
احجار إيمي ن إيكيس 105
النميمية........ 108
باب تاگانت........ 109
تامكساوت، مانزا كميم...؟........ 111
سخرة اللفت 113
للسكوري وللفأر... 117
موحا........ 118
المهجورة........ 120
أقيد إيخف........ 122
أنشودة النساجة 124
الزوجتان 126
حمو- ما- إيسمن – إيك... 127
حصاة ملساء 130
طبيبتة 132
المسامير........ 134
غاسلات الصوف........ 138
جدة القاتل 139
خاتم يا مولاي 143
الأمر متأخر جدا... 145
إيزا 147
تهويدة........ 148
مليكة........ 150
أزوو........ 152
لم تكن تعرف........ 154

أزو... 155
سعيد هو اليوم... 156
الأمر هكذا دوما 158
بدون عنوان 159
أختاه 160
المشبك... 161
الأعمى 162
طريق النسيان.. 164
له كل ما يلزم 166
العاشق السيء.. 168
نار السماء 170
لا صداقة حقيقية... 171
تامكساوت 173
وشرعت أمي في البكاء.. 175
كل واحد ينفخ.. 176
أكَنس أول نو 177
هناك 178
ماخ إيليكَ أد – تالّات أ تافروخت.. 179
أنا أغني.. 181
حبات السبحة 182
دعاء من أجل عين جافة... 183
أسافو.. 185
تامايورت.. 187
الصدى 188
حبيبة... 190
من الآن فصاعدا لا شيء يهمني.. 191
يا مولاي سليمان.. 193
ماني س إدّا؟.. 195
إهانة 196
رييد إدكَام... 197
مديح واشمة 199
آزركَ إنتمنّاو ربي 201
إيطو.. 203
تحية صباحية 206

" **أغاني تاساوت** " ليست تجميعا لمنتخبات شعرية؛ إنها تجميع لنفثات صدر مكروب إزاء عالم قاس وغريب، أخذ منها كل شيء ومنحها القصيدة فقط ... لقد بنت مريريدة، ومن عناصر بسيطة ومتناثرة، من أسمال وجود شقي في طبيعة وتضاريس قاسية، ومن حطام حياة عرفت فيها تقريبا كل شيء... عالما شعريا كاملا ومنسجما ...

" **أغاني تاساوت** " أيضا هي أغاني للحب الذي لا يخلف إلا المرارة، الحب المستحيل، الذي يولد في الوقت الخطأ ويكون في الغالب الأعم من طرف واحد، الحب الهش الذي يعصف به الرحيل والرغبات المجنونة، حب الدموع والشكوى والذبول والانتظار اليائس، الحب الذي يترك جراحا وندوبا في الروح لا تندمل أبدا.

ⵉⵙⴰⵖⵓⵔⵏ ⵏ ⵜⴰⵙⵙⴰⵡⵜ, ⵉⴳⴰ ⵢⴰⵜ ⵜⴳⵔⵓⵎⵎⴰ ⵏ ⵜⴳⵯⵣⵎⵉⵏ ⵍⵍⵉ ⴷ ⵉⴼⴼⵓⵖⵏ ⵣⵖ ⵢⴰⵏ ⵓⵍ ⵉⵜⵜⵢⴰⴳⴰⵙⵏ ⵖ ⵢⵉⵖⵣⵡⵔ ⵍⵍⵉ ⵢⴰⵙ ⵉⴽⴽⵉⵙⵏ ⵎⴰⴷ ⴰⴽⴽⵯ ⵜⵄⵄⴰⴼ, ⵎⴰⵛⵛ ⵉⴼⴽⴰ ⵢⴰⵙ ⵜⴰⵎⴷⵢⴰⵣⵜ. ⵣⵖ ⵢⴰⵜ ⵜⵉⵍⴰⵡⵜ ⵎⵓ ⵙⵙⵓⵜⵍⵏⵜ ⵜⵓⴳⵜⵜ ⵏ ⵜⵎⵓⴽⵔⵉⵙⵉⵏ, ⴷ ⵢⴰⵜ ⵜⵓⴷⵔⵜ ⵉⵎⵇⵇⵥⵉⵏ, ⴰⴷ ⵖ ⵜⵙⵏⴰ ⵎⵔⵉⵔⵉⴷⴰ ⵉⵖⵣⵡⵔ ⵏⵏⵙ ⴰⵙⴽⵍⴰⵏ ⵙⵔⵙ ⵉⵥⵍⵉⵏ. ⵉⵙⴰⵖⵓⵔⵏ ⵏ ⵜⴰⵙⵙⴰⵡⵜ, ⵉⴳⴰ ⵓⵍⴰ ⵓⵔⴰⵔⵏ ⵏ ⵜⴰⵢⵔⵉ ⵍⵍⵉ ⵎⵓ ⴷ ⵉⵜⵜⴳⵓⵔⵓ ⵡⴰⵄⵄⴰⵏ, ⵜⴰⵢⵔⵉ ⵍⵍⵉ ⴷ ⵉⵜⵜⵍⴰⵍⵏ ⵖ ⴳⴰⵔ ⴰⵣⵎⵣ, ⴰⵔ ⵙⵔⵙ ⵉⴽⴽⴰⵜ ⵡⴰⴳⴳⵓⴳ ⴷ ⴳⴰⵔ ⵉⵎⵏⵢⵓⵔⵏ, ⵜⴰⵢⵔⵉ ⵏ ⵉⵎⵄⵄⴰⵡⵏ ⴷ ⵓⵙⵍⴰⵡ ⴷ ⵉⵖⵉⵎⵉ ⵉⵙⵙⵟⵏⵄⵏ, ⵜⴰⵢⵔⵉⵉ ⵍⵍⵉ ⴷ ⵉⴼⴼⴰⵍⵏ ⵉⵣⵎⵓⵍⵏ ⵖ ⵉⵎⴰⵏ ⵍⵍⵉ ⵊⵊⵓⵏ ⵓⵔ ⵉⵜⵜⵊⵊⵉⵏ.